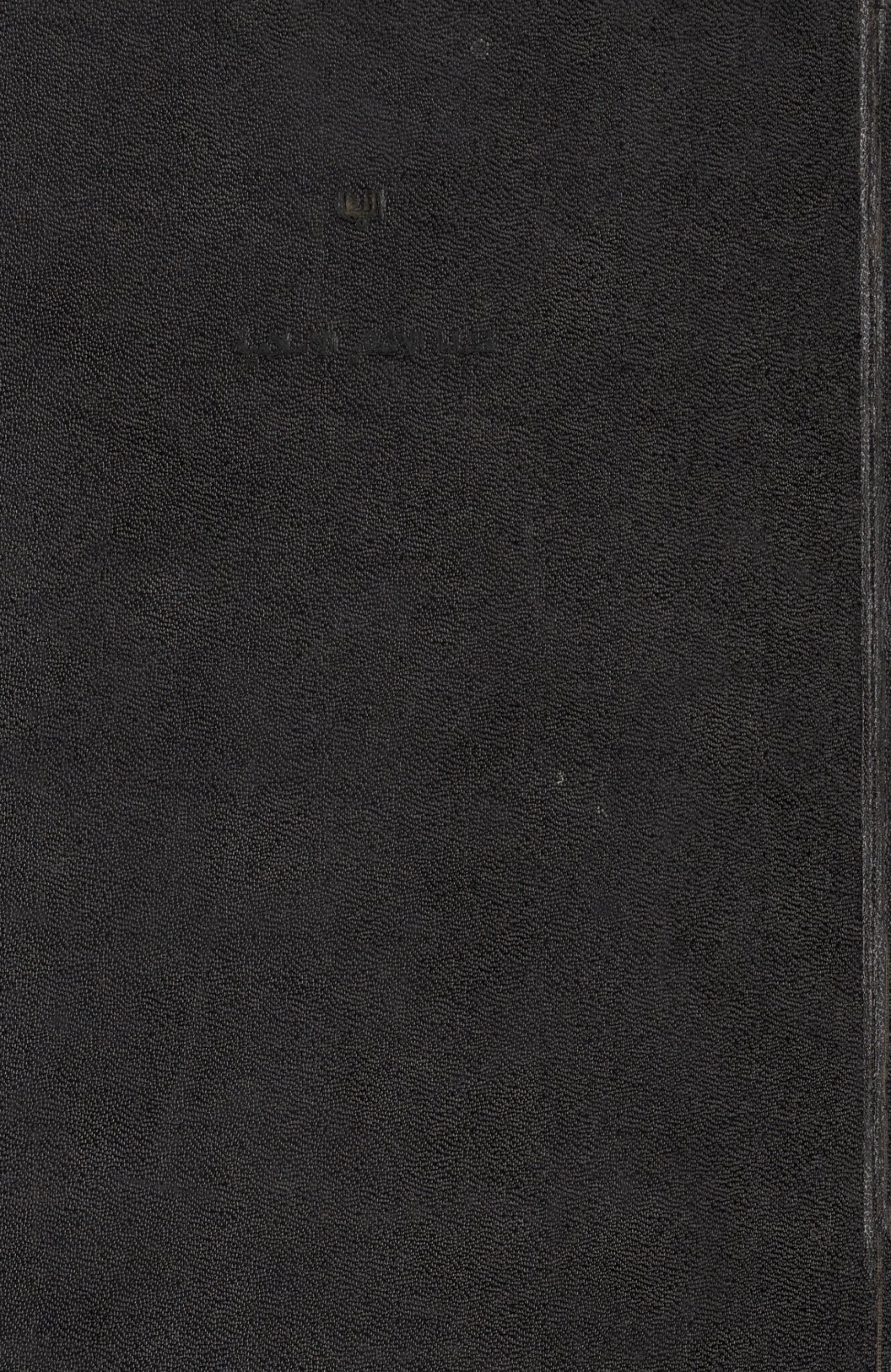
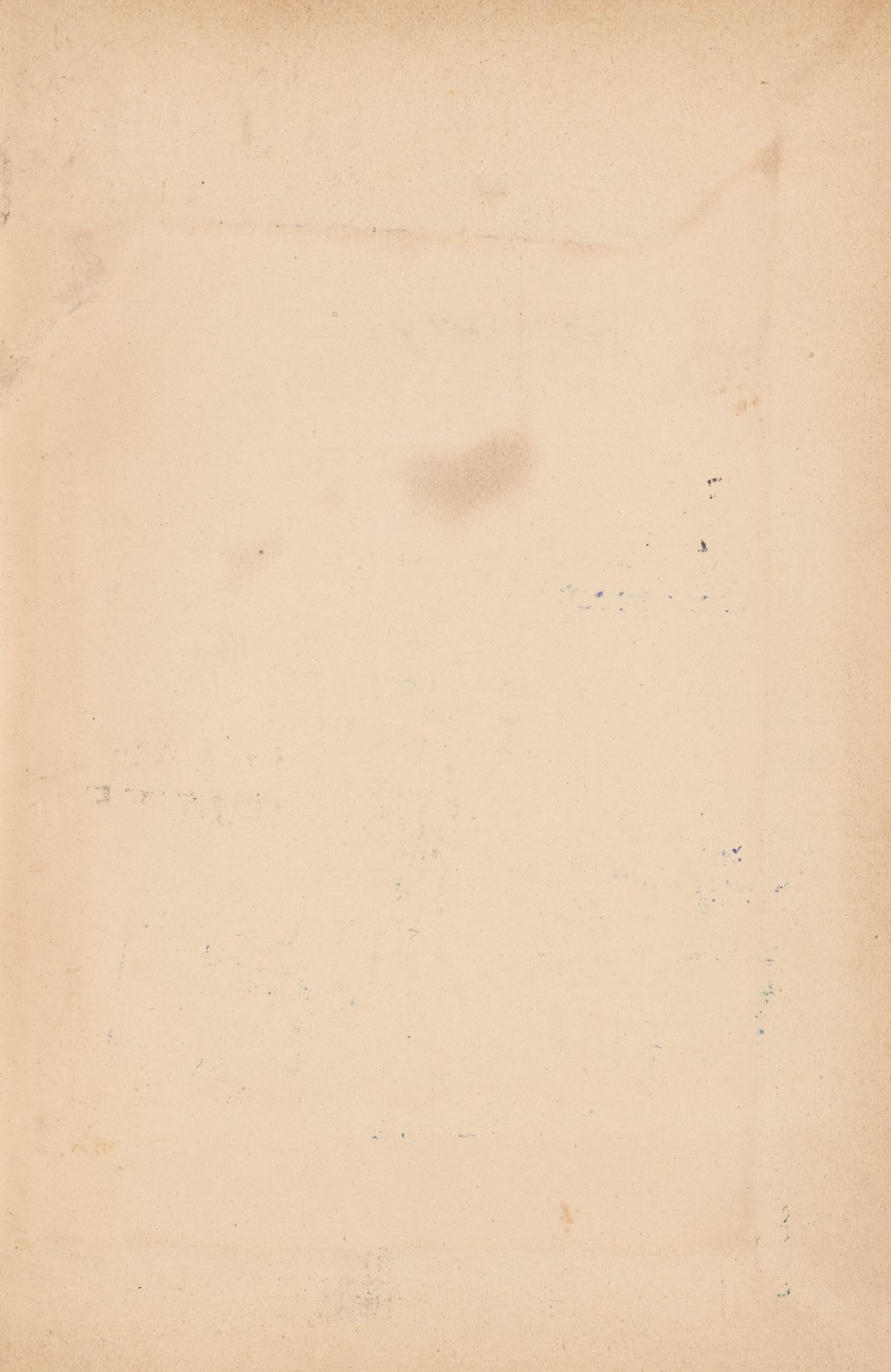








قضايا الأقطار الإسلامية

أول وثائق ومذكرات تاريخية
عن يقظة الاسلام وزحفه إلى قواعده فى قرن كامل
ودراسة لقضايا الأقطار العربية الاسلامية

يقدمه

أنور الجندى البنا

من الإخوان المسلمين

١٩٤٤ ؟؟

(غرة جمادى الثانى سنة ١٣٦٥)

مطبعة مكتبة مصر



بسم الله الرحمن الرحيم

« طسم ﴿ تلكَ آياتُ الكتابِ المبينِ ﴿ نتلوا عليكَ منْ نبأ موسى »
« وفرعون بالحقِ لقوم يؤمنون ﴿ إن فرعونَ علا فى الأرضِ وجعل »
« أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان »
« من المفسدين ﴿ ونريدُ أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرضِ »
« ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ﴿ ونمكن لهم فى الأرض ونُرى »
« فرعونَ وهامانَ وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »

« القصص »

إهداء

إلى فضيلة الأستاذ الامام

حسن البنا

المرشد العام للاخوان المسلمين

إليك يامن نقلت ملايين الشباب من هوة الشر وظلمة الجهل إلى نور القرآن وهدى الرحمن .

إليك يامن أنقذت الإنسانية من التردى فى الفخ المنصوب .

إنيك يامن علمت الجيل معنى الإسلام وحقيقة القرآن .

إليك يامن وجهتنا إلى الهدف الرفيع والغاية الكبرى .

إليك يأيها المجاهد الصابر .

إليك يأيها المؤمن الصادق .

يقدم أضعف أبنائك قدرة فى ميدان الفكر والبيان هذه الرسائل راجياً أن توجه كاتبها إلى ما فيها من خطأ وأن تصلح ما فيه من قصور .

ويكفينى أن تكون راضياً عنى لأن رضاك - عندى - من رضاء الله ورسوله ؟

جنديكم المخلص

أنور

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله تبارك وتعالى ونستفتح بالذى هو خير .

فى هذه الأيام التى تكتب الدول العربية والأقطار الإسلامية مصيرها نرى أنفسنا فى حاجة لأن نتدارس حالنا كمسلمين نحمل أشرف رسالة وأطهر دين وأعظم تشريع وأقوم كتاب .

فى هذه الأيام التى استيقظ فيها المسلمون استيقاظاً كاملا بعد غفلة شاملة امتدت طويلا ، تنبه إبانها الغرب وقذفنا بالاستعمار فى أسلوب ناعم لين من الحضارة الداعرة ، والثقافة الكافرة ، والألفاظ التى لاتحمل من وراءها معنى .

وفى هذه الأيام التى زحف فيها الإسلام زحفاً متصلا قوياً إلى قواعده ليستردها ، وإلى هيبته لينالها ، وإلى كرامته ليتشح بها ، وإلى تاريخه ليعتز به ، وإلى دينه ليحقق رسالته ، وإلى قرآنه ليذود عنه ، وإلى تشريعه لينفذه ، نحن أحوج ما نكون لكى ننظر إلى قرن كامل من الزمان لنرى كيف كنا وماذا أصبحنا وإلى أين نسير .

* * *

لاشك مطلقاً - ولاذره من شك - فى أن الشرق الإسلامى قد استعاد إيمانه بعزته وكرامته ومكانه القديم فى التاريخ ومكانه الجديد على وجه الأرض - ولكنه فى حاجة متصلة دائمة إلى التذكير بالهدف الأكبر والغاية العليا : إقامة أحكام الله فى الأرض والذود عنها بالروح والدم والمال وتفديتها بكل ماتملك من قوة وعتاد .

فباسم هذا الدين القيم وباسم هذا الكتاب الخالد أكتب هذه الصفحات لشبابنا معتذراً عما بها من نقص . آمل أن تكون له زاداً يقرأها فيعرف كيف حاول الغرب أن يطمس على هذا النور وكيف كان هذا النور قوياً دفاقاً

نفذ من الحجب المصنوعة له إلى القلوب المطبوعة به فأمدها بالإيمان الصادق .

لنذكر دائماً كيف حاول الغرب أن يقتل فينا الإسلام لأنه يعلم أنه مصدر العزة وأنه بذرة القوة والحرية ولنذكر كيف حاولت الحضارة الغربية ، حضارة الاستعمار والتغريب أن تتناول شبابنا إلى مزالقها المظلمة فتقتل فيهم الإيمان والصحة والقوة والمال .

وكيف حاول الغرب ، الغرب الملحد الإباحى المادى أنّ يستعبد الشرق الروحى المؤمن مهبط الأنبياء وموئل الديانات ، ولكن ذلك ولله الحمد لم يطل أمره فقد أشرق النور مرة أخرى فاكتسح الأوهام وبدأ الإسلام يزحف فى قوة وعزيمة وصدق .

* * *

وفى هذا الكتاب حديث عن قضايا الأقطار الإسلامية هو جزء متصل بالرسالة الثانية (الإسلام يزحف) وفيها تفصيل المعركة بين ظلام الغرب ونور الإسلام ، بين النفس المسلمة المؤمنة والحضارة الغربية المجرمة ـ فاقرأ يا أخى وتذكر واملأ قلبك إيماناً بحقك وشعوراً بعزتك . وتأكد أنك مادمت مع الحق فإن الحق معك (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

وعما قريب أقدم لك بقية الحديث فتعرف كيف يكون الاتجاه وإلى أين المصير .

أيها الشباب ، أيتها الكتائب المسلمة ، أنتم عدة الشرق المسلم وأمل القرآن، فاذكروا القضية الكبرى واجعلوا لكم منها هدفاً يكتب الله بكم النصر ويفتح بكم (ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

فى هذه الرسالة فصول عن مصر وتركيا والحجاز والعراق والشام وفلسطين والهند وأندونسيا وإيران فصلنا القول فى بعضها وأجملناه فى الأخرى واقتضبناه فى الثالثة والعبرة بالفكرة لا بالتفصيل ، وإنى لأذكر هنا بالفخر كيف أن العراق وسوريا ولبنان والحجاز ومصر تضامنت باسم الجامعة العربية لتوقد سراج الجامعة الإسلامية عما قريب .

وبين يدى الجامعة يتقدم المغرب المجاهد وليبيا المؤمنة ، ولنا أمل فى أن يكون لهما فيها مكان ولقضيتهما لسان .

كما أننا كمسلمين كبيرو الأمل فى ربط تركيا وإيران بالجامعة العربية تتميما للوحدة ، وجهاد أندونسيا وجهاد الهند لا ننساه ، وفى سبيل الله نستشهد حتى نصل إلى الحرية الكاملة والوحدة الصادقة .

وليحذر زعماء الجامعة العربية الخلاف وليقتلوا الفتن فى مهدها لتسير الجامعة فى طريقها قوية مجاهدة مناضلة فى سبيل حقوق العرب .

* * *

وبعد فإنى كبير الأمل أن يكتب لى حضرات الإخوة القراء ملاحظاتهم عن كل شىء وتعليقاتهم حتى يمكن أن نستفيد بها فى ملحق هذا الكتاب وخاتمته (الإسلام يزحف) ونسأل الله أن يعيننا على إصداره فى القريب ، إنه سميع مجيب، ونسأله تبارك وتعالى أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه لانبغى به ظهوراً ولا غروراً ، وأن يتقبله بقبول حسن ، وأن يكتب لدينه النصر ولأمة القرآن العزة والظفر .

والحمد لله أولا وآخراً والله أكبر ولله الحمد .

أنور الجندى

نواة الزحف الأولى

استيقظ الإسلام من غفوته وبدأ يزحف . .

هذا هو الواقع الملموس فى الحركات الفكرية والاجتماعية التى تظهر فى كل مكان .

استيقظ أولا باسم الفكرة القومية الوطنية ثم باسم الفكرة العربية التى صارعت الجامعة الطورانية ثم مضت الفكرة إلى هدفها بقوة وعزم إسلامية بحتة .

كان غزو نابليون أول طارق للشرق الأدنى بعد حركات الغزو التجارية التى قامت بها البرتغال وهولندا وانجلترا فى الشرق الأقصى والأوسط .

وكانت حركات محمد على الكبير أولى حركات القوة والعزة والسيادة باسم الإمبراطورية العربية التى حشد لها محمد على كل جهوده .

ثم كانت حركات فكرية واجتماعية قام بها القادة باسم الإسلام كحركة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده والسنوسى والمهدى ثم تلا ذلك الثورة العربية الكبرى فى أوائل الحرب الكبرى الأولى؛ كل ذلك وما تلاه من ثورات وطنية تطالب بالحرية يهىء الوطن الإسلامى الأكبر لزعامة الفكرة الإسلامية واستقرارها .

تركيا العثمانية

كانت تركيا العثمانية هى القارعة الثالثة للغرب ليهب من رقدته طوال القرون الوسطى . وهى أثر من آثار الخصومة العنيفة التى لبست يوماً ما لوناً من التعصب الدينى البغيض واتخذت أسلوباً من أساليب الصليبيين فقد كان بيننا وبين الغرب فى التاريخ الإسلامى مواقف أظهرها رغبة الغرب فى ارتداد بيت المقدس باعتباره الحرم المقدس الذى يحج إليه النصارى من مشارق الأرض ومغاربها وقد كان نتيجة ذلك تكوين الدويلات الصليبية ومواصلة الهجمات النصرانية فى سبع حملات إلى الشرق . وما كان من سحق صلاح الدين لهذه الدويلات وردها مرة أخرى إلى شمال البحر الأبيض وعودة بيت المقدس إلى المسلمين .

كذلك ما كان بين الإفرنج والمسلمين فى أسبانيا ومحاولات الإفرنج لتجريد الأندلس من المسلمين وتشريدهم ونصب المقاصل للقضاء عليهم وهجرة المسلمين إلى المغرب هرباً من وجه هذا الطغيان الصليبى الظالم الذى حاولت به أوربا أن تقضى على آخر مسلم فى أوربا .

ولقد كان لهذه المواقف أثرها فى نفوس المسلمين والنصارى على السواء ، فهى اعتداء صارخ من الغرب واستعداد غاشم للقضاء على الشعلة الإسلامية المقدسة ، فكانت ضربات محمد الفاتح لأسوار فينا واقتحامه بلاد البلقان وقضاؤه على أملاك الدولة الرومانية الشرقية قضاء تاماً هو أبلغ الرد على هذه الخصومة الجامحة التى ظلت تملأ نفوس الغربيين وتدفعهم نحو الشرق حتى مكنت لهم ظروف المسلمين وغفلتهم من السيطرة السافرة والاستعمار العسكرى والاقتصادى للمملكة الإسلامية وتمزيقها شر ممزق بعد الحرب الكبرى ، ووقوف آثم من مجرمى الاستعمار فى القدس ينادى : إن الحرب الصليبية قد انتهت اليوم .

إن عداء الغرب للشرق وعداء النصرانية الغربية للشرق المسلم : عداء متحكم فى النفس الغربية يدفعها لأن تتسلط على الشرق تسلط الظالم الحاقد الذى يتأكل

قلبه على هذه الأمة القرآنية التى كان لها فى التاريخ مكان مرموق والتى صرعت الغرب فى عدة مواقف وردته مهزوماً محطما فى الأندلس مرة وفى جنوب إيطاليا مرة وفى القسطنطينية مرات .

ولكن لابأس ولا جزع من هذا الحقد الذى يملأ صدر الغرب الجاحد على الشرق المؤمن فإن هذا الدين الذى يحمله الشرق ويدافع عنه ويذود عن حماه هو دين الإنسانية . وهو الرى للغرب العاطش ، وهو الهدى للغرب الضال إن كان يريد رياً وهدياً بعد طول تخبطه وغفلته .

(سنريهم أياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد)

كانت الدولة العثمانية تؤمن بالإسلام وتنشر لواءه فى الشرق والغرب وقد انبسط جناحاها على الشرق الأدنى والأوسط والأقصى حتى شمل كل مسلم واحتفظت بالخلافة الإسلامية التى آوت إلى مصر بعد هزيمة بغداد بمعاول التتار وحملتها إلى القسطنطينية وأصبحت منار الإسلام ورافعة لوائه :

ولكن السنين الطوال خلال الثلاثة القرون التى مكنت للدولة العثمانية على وجه الأرض أصابت الأمم الإسلامية بالغفلة عن دينها وأصابت أحكام القرآن بالتعطل ، وعاشت الأمم المستظله بلواء الخلافة حياة خاملة خامدة ليس فيها بريق من نور إلا ذلك الصوت الذى دوى فى الشرق كله بعد أن استفحلت الجهالة والغفلة ، صوت جمال الدين الأفغانى ينتقل بين أقطار العالم الإسلامى يدعو إلى الجامعة الإسلامية ويشحذ الأذهان لليقظة والقوة ولطرح التواكل والجمود والذل للغاصب والدخيل ورفع الرأس فى عزة وكرامة والمطالبة بالحقوق المهضومة فى حرارة وإيمان .

* * *

كان عصر سليمان القانونى قمة الخلافة العثمانية ، فلما مات عام ٩٨٥ هـ ١٥٦٦م بدأت الدولة التركية فى الانحدار وقد كان اتساع ملكها وبعد أطرافه من أسباب الضعف والاضمحلال فضلا عن غفلة الخلفاء وبعدهم عن الرابطة الإسلامية الصحيحة وركون الدولة عن الحرب والجهاد إلى لون من الدعة

والترف . وانصراف الخلفاء واحداً بعد واحد إلى حياة القصور ينغمسون فى الشهوات والملاذ ويعملون على زيادة أبهة الملك وتشييد القصور وفرشها واقتناء الجوارى والغوانى والانصراف إلى حياة كلها رقص وخلاعة ومجون . مما لم يعرف عن الرعيل الأول - أولئك الذين كانوا مثال الرجولة والخشونة والجهاد والجلاد وقاعدة عمر هى كلمته المشهورة (والله لو نمت النهار لأضيعن الرعية ولو نمت الليل لاضيعن نفسى) وأحاطت بالخلافة بطانة من رجال السوء ونساء السوء ليس لها هم إلا أن تتخم وتثرى على حساب الشعب المسكين، واحتجز الخلفاء أنفسهم فى القصور لا يعلمون عن الإمبراطورية المترامية الأطراف شيئاً إلا ما ينقله إليهم بلاطهم وجواسيسهم وهم يخلطون باطلا بحق وظناً بيقين حسبما يرون المصلحة العاجلة والغاية النفعية .

وساد الدولة العثمانية ظلام دامس بانقباضها على نفسها وغفلتها عمن حولها، واستفحل أمر روسيا وتطلعت تنتهب البسفور ، وتطلعت انجلترا وهولندا والبرتغال تريد أن تنتهب هذه المملكة الشاسعة الواقعه تحت حكم الترك، ومن ثم بدأت الفتن والقلاقل فى البلقان والمجر وبولاندة وهددوا الخلافة بالثورات العنيفة .

كانت هذه الجنسيات المختلفة بدأت تستفيق من غفلة القرون الوسطى إلى نعرة القومية الأوربية فضلا عن بروز العصبية الدينية فيها . أضف إلى ذلك حالة تركيا من ضعف الجيش وانحلاله وظلم الولاة وسلبهم وطغيان أمراء البلاد واستبدادهم . وقد أغفل التشريع الإسلامى الذى كان عجلة القيادة للامبراطورية بأصوله المركزة وقواعده المرتبة وتحديده علاقة الحاكم بالمحكوم والغنى بالفقير .

أما فى هذه الفترة فقد كانت الأمور فوضى وعلاقة مركز الخلافة بالممالك التابعة (علاقة جباية) تسأل عن الأتاوة المعينة دون أن تعمل على أى إصلاح أو تجديد ،وقد استطارت الأوبئة من الأمراض والقاذورات واستنامت الشعوب إلى لون من الذلة والاستكانة فى ظل هذا الظلم الصارخ - وقامت حياة المجتمع على شريعة الأسماك يأكل القوى الضعيف ويستبد الكبير بالصغير ويتعاون الحاكم ووكلائه على سلب الشعب وتجريده وتركه فى الفقر

والعوز والجهل والمرض وأصيبت الحياة العقلية بركود عجيب وانصرف العلماء إلى ركب الخلفاء. وانصرف الناس إلى هوامش الحياة وقشور الدين يتناقشون فيها ويتنازعون ويتجادلون حول توافه الأمور وحول فرعيات الفقه وفرضيات المسائل ويسألون عن الغرائب ومالم يقع من الأمور.

وكفت الدولة العثمانية عن الإصلاح للشعوب والأقطار والجيوش واستفحل داء الرشوة بين الحكام واستطال الوزراء وسيطروا وأصبحت بيدهم السلطة ثم كانت سنة ١٠٦٧ هـ ١٦٤٧ م حيث بدأت الثورة من جهات متعددة لولا همة محمد كبر يلى الذى اختير صدراً أعظم فضرب على أيدى المفسدين والعصاة إلى حين.

* * *

حقاً إنه لمما يذكر فلا ينسى أن تركيا أدت للشرق الإسلامى خدمة جليلة مدى أربعة قرون تولت فيها الدفاع عنه من شمال القوقاز على سواحل البحر الأسود إلى المحيط الأدرياتيكى فى وجه جنود أوربا الوسطى ولكن مما يذكر أيضاً فلا ينسى أن انطواء تركيا على نفسها وعزوفها عن أحكام التشريع الإسلامى رمى الشرق كله بذلك الشر الوبيل والاستعمار البغيض.

* * *

كانت أهمية العصور التركية الأخيرة متعلقة ببناء القصور والمساجد وزخرفتها وإغداق الآلاف المؤلفة على هذا الزخرف وما سواه من فرش وأرائك وحرائر وستائر وكان من علامة الحضارة عند أفول نجمها أن تجنح إلى الترف والبذخ ومن ثم يبدأ الانحلال ويبدو الوهن والضعف.

وكذلك كان الخلفاء ينعمون فى داخل قصور مغلقة لاتصل إليها صيحات المظلومين ولا تعرف أنات البائسين بمثل هذه الألوان من البهرج والترف وأمثال هذه الطنافس والمذهبات من عروش فارسية وتيجان مرصعة بالماس وأحجار ثمينة من اللؤلؤ والمرجان والعقيق.

وتصل أخبار المملكة يحملها وزير أو جاسوس وبأيدى هؤلاء الخدم والحشم تقضى الأمور وتصرف دفة الحكم وفيهن الجاسوسات على الخليفة نفسه ينقلن حركاته وهمساته إلى دولهن، وكل مايجبى من هذه المملكة الواسعة

الممتدة من الأناضول إلى العراق إلى عدن إلى تونس ينفق أكثره على ما فى هذه القصور من ملذات وشهوات ، أما الشعب فغارق فى جهله وغفلته وذلته يستمع فى المساجد عظات الزهد فى الدنيا طمعاً فى الآخرة ونعيمها .

هذا كله كان عامل الانحدار والتدهور وهو المفتاح الذى دخلت به دول الغرب متنافسة لتتقاسم تركة (الرجل المريض) وتحاول أن يكون بعضها أقرب إليه وأكثر امتيازاً .

وسيادة الخلافة العثمانية يومئذ تمتد على اليونان وألبانيا ويوغسلافيا وبلغاريا ورومانيا وكريت وقبرص والقوقاز والعراق والشام وفلسطين وتونس والجزائر ومراكش . وكانت هذه الممالك تضطرب وتغلى كالمرجل فى عهد السلطان عبد الحميد وفى نهاية القرن الثالث عشر الهجرى وختام القرن التاسع عشر الميلادى .

ورايات العثمانيين ما تزال تخفق وقتئذاك على الساحل الجنوبى كله للبحر الأبيض وقد أصبح البحر الأحمر بحيرة إسلامية ، ثم بدأت أوربا تنازع هذه الدولة المضطربة أملاكها وتنقصها من أطرافها وقد وصلت الهند يومئذاك إلى يد إنجلترا باسم البرتغال وأقامت هولندا على شواطىء الخليج الفارسى وتفجرت البلقان بالثورات المتلاحقة . وبدأت عواصف الاقتطاع فى طرابلس وتونس والجزائر وظهرت حركات محمد على الكبير ورغبته فى تكوين امبراطورية عربية ووقوف الدول الأوربية له وتحطيم أسطوله فى نفارين وقسره فى حدود ضيقة وتسليم الحجاز وجزء من سوريا إلى الدولة العثمانية ثم أصبحت مصر تحت تأثير ديونها وقناة السويس ألعوبة فى يد أوربا ثم جاءت بعد ذلك ثورة عرابى فوضعت إنجلترا يدها على مصر ثم ثار المهدى فأخليت السودان وانتهبت إيطاليا وفرنسا أفريقيا الشمالية .

وفى حالة النزع الأخير لدولة الأتراك العثمانيين بدأ التفكير فى الجامعة الطورانية رغبة فى سد الفتوق بنشاط أنور وكمال وجمال ونيازى ومدحت ، ولكن الواقع كان أشد قسوة مما يتصورون . فإن العرب شعروا بقوميتهم وبالرغبة الجائرة التى تحاولها تركيا بتتريك العناصر المتصلة بالخلافه . فى الوقت

الذى كانت تركيا تقاسى فيه آلاماً مريرة من حكم عبد الحميد ذلك الطاغية المستبد الذى لا يقبل كلمة من كلمات الحرية أو الشورى .

* * *

تولى عبد الحميد عرش السلطنة العثمانية ١٨٦٧ م ومكث خليفة المسلمين إحدى وأربعين سنة كانت فترة تمرد وفتن وثورات حاول فى إقماعها كل محاولة وأفشى نظام الجاسوسية الرهيب حتى أصبح الناس آذاناً على بعضهم وكان لهذه الغاية يحاول أن يمنع عن تركيا مظاهر الرقى والتقدم الأوربى رغبة فى أن يظل الشعب سادراً فى غفلته وجهله . ظانا بأن هذه الحضارة هى عود الثقاب فى عرشه أولا قبل أن تكون سبباً فى الثورة والتمرد على نظم المجتمع .

استقر عبد الحميد فى قصر يلدز مع حاشيته وخدمه وحرسه وأقصى نفسه عن المجتمع كله منهمكا فى تقاريره التى ترد من الجواسيس ، خائفاً من الاغتيال ، يحرم التليفون خوفا من أن يكون سبباً من أسباب المؤامرات التى لا يحصرها الجواسيس .

وكان قد قام حزب تركيا الفتاة يوزع النشرات على الناس ويلصقها على المبانى وفيها حض على الثورة ودعوة للسلطان لاعتزال العرش وتهديد له بالاغتيال ، ولخوف عبد الحميد من كل إشارة عابرة كان يأمر الصحف أن تحذف كلمة (اغتيال) وحرية ودستور من فصولها فضلا عن تكميم الصحافة وحظر الاجتماعات ومضى يدفع هذا اللون الجديد من اليقظة بكلتا يديه ولكن التيار القوى ازداد عنفاً حتى اضطر فى السنين الأخيرة إلى مجاراة التيار .

* * *

أشعلت نار الثورة فى ١٩٠٨ وقام الشعب التركى يبغى الإصلاح وتألفت جماعة الاتحاد والترقى وتضامن الجيش مع الشعب فى إلزام الخليفة السلطان عبد الحميد أن يعلن الدستور فاضطر إلى إعلانه ومن ثم عاد المنفيون من رجال الحكم التركى وتولوا قيادة النهضة الجديدة وأطلقت حرية الصحف والاجتماعات ثم قامت الثورة مرة أخرى فى سنة ١٩٠٩ وخلع السلطان عبد الحميد ونفى إلى خارج البلاد وعين السلطان رشاد خليفة للمسلمين .

تركيا ماتزال تنظر فى ذلك الوقت بعين الكبرياء إلى ما يتبعها من ممالك خاصة العرب ، فهم قد فتحوا البلاد العربية بحد الحسام فلابد أن ترتبط هذه الممالك بالسلطنة العثمانية . وفى سبيل ذلك عوملت هذه الأقطار الإسلامية بالاستبداد والظلم مما أدى إلى انتقاض العرب على هذه السياسة والانضمام إلى جانب انجلترا حين أعلنت الحرب الكبرى وتحالفت تركيا مع ألمانيا . وقاد هذه الحركة — الحجاز بزعامة الشريف حسين رغبة فى الإبقاء على القومية العربية واحتجاجا عل المعاملة الظالمة والاستبداد الجائر فى معاملة تركيا للعرب وهى تحاول أن تنفذ مشروعها الغريب (مشروع الجامعة الطورانية) وتتريك العناصر العربية وغيرها .

وقد انتهت الحرب بانحلال تركيا وغنم الغرب مخلفات الدولة العثمانية وتقاسمت هذه الأملاك إيطاليا وانجلترا وفرنسا فيما بينهم ، وأصبحت تركيا نفسها قلب الإمبراطورية وموئل الخلافة مهددة باحتلال اليونان لها بتوكيل من الحلفاء .

* * *

خرجت تركيا من الحرب منهوكة القوى فضلا عن أن السياسة الداخلية كانت مضطربة تتنازعها الأهواء والمطامع .

حينذاك ظهر مصطفى كمال فقاد كتائب الترك الممزقة إلى النصر والظفر ورد اليونان مهزومة بعد أن نكل بها — وأعاد لتركيا كيانها ومكانها فهز ذلك أوربا وعرفت أنها إزاء دولة قوية منتصرة أرغمتها على أن تسمع لها وتستجيب وكذلك فرضت تركيا حقوقها فرضا على أوربا .

* * *

لم يكن أتاتورك من رجال الحركات الأخيرة فى تركيا ، إنما كان ضابطا من الضباط ولكنه كان متحمساً ملتهبا يرغب فى تحرير وطنه واستقلال بلاده . وكان قد اقتنع بنظرية آمن بها وأذاعها ، وكان فى تحقيقها الظفر والنصر ، تعلم هذه النظرية وأيقن بها خلال حركاته الكثيرة إلى طرابلس وإلى الشام حين سمع الشكوى المرة والكراهية المتأصله والحقد الدفين القائم بين تركيا

والعرب ، وتمرد العرب على رغبة تركيا فى تتريك العناصر التابعة لها ، وعلم أن تركيا أمة وأن العرب أمة وأن السر فيما أصاب تركيا من ذلة وهوان وأزمات هو هذه الممتلكات الشاسعة الواسعة التى لا تحكمها تركيا حكماً صحيحاً والتى هى السبب فيما أصيبت به تركيا من نكبات . لذلك صمم على سياسة موحدة هى أن تصبح تركيا — تركيا فقط ، يجب أن تعيش تركيا داخل بلادها . ومادامت أرضها تتسع لها وثروتها تكفيها فلا جدوى من التمسك بهذه الأقطار .

بهذه الفكرة وحدها عمل أتاتورك وعلى أساسها أقام الملك .

* * *

فرض أتاتورك (١) نفسه فرضاً على تركيا وعلى الخليفة وعلى الزعماء وعلى النواب وعلى كل شىء ، واستطاع أن يقاوم بفلول جيشه لا يعاونه إلا عصمت إينونو واستطاع أن يخرج اليونان إلى البحر وأن يسترد أزمير وأن يصبح رجل الساعة فى تركيا بل فى العالم الإسلامى كله .

وبعد أن تخلص من العدو الخارجى بدأ ينظر إلى الداخل فقضى على رءوس التمرد والنفاق ، وعلى بطانة الخليفة التى كانت لا تعمل شيئاً إلا الدس والوقوف فى طريقه .

حاول النواب أن يوجهوا أتاتورك إلى استرداد سوريا والعراق ليعيد للأمبراطورية العثمانية سالف مجدها ، فكان رده عليهم أنه لا يرغب إلا فى تأمين حياة الوطن واستقلاله داخل حدوده الطبيعية ، وأنه قد أبعد الأحلام والأشباح عن سياسته إلى الأبد .

ورد عن نفسه دعايات الشيوعيين الذين حاولوا اهتبال الفرصة لأنهم عاونوه فى حرب الاستقلال فردهم قائلا : إن تركيا سترعى شئونها بنفسها ولن تسمح لغيرها بأن يريد بها شيئاً غير ماتريده لنفسها .

استرحنا من اليونان وبدأ حرب بعضنا لبعض : هكذا قال أتاتورك . وأقام

---

(١) لا يمكن أن ننسى أن أتاتورك قد أحرز كل هذا النصر باسم الاسلام أولا ثم انقلب عليه .

حكومته الوطنية فى أنقره ، وفى الآستانة تقوم حكومة السلطان ، ووزراؤه وجمهرة الأتراك تميل إلى أن يتفق الطرفان فيتولى مصطفى كمال رئاسة الوزارة متعاوناً مع السلطان . ولكن أتاتورك كان له رأى آخر . فلما ذهب إلى المجلس أعلن فى قوة وحماسة أن السلطة شىء والخلافة شىء آخر ، ولا بد من الفصل بينهما وإلغاء الأولى وخلع السلطان وحيد . وأخذ النواب يتجادلون فهددهم أتاتورك بأن فى معارضة هذا القرار يدفعون ثمناً غالياً هو رءوسهم .

وتمت الموافقة وخلع السلطان وولى خليفة جديد مجرد من السلطة الزمنية ، وعمل أتاتورك لإنشاء حزب الشعب وأوفد عصمت لحضور مؤتمر لوزان ٢٨ أكتوبر ١٩٢٢ ثم اجتمع بالبرلمان وقرر أنه غير نظام الحكم ، وأصبحت تركيا جمهورية ولها رئيس وبذلك أصبح أتاتورك رئيساً للجمهورية التركية فى ٢٧ أكتوبر ١٩٢٣ - وفى ٢٣ مارس ١٩٢٤ قدم للمجلس اقتراحاً بإلغاء الخلافة ، وفى ساعة واحدة صدر قرار المجلس بالموافقة وصدر الأمر بخروج عبد المجيد من البلاد هو وجميع أمراء آل عثمان وبذلك استتب الأمر لأتاتورك فى تركيا جميعها .

عوامل وأسباب ونتائج انهيار تركيا العثمانية

١ ـ طرد مدحت باشا بعد ٧٥ يوماً من تولى الوزارة لأن الخلفاء أمروا بإبعاده فأطاع الخليفة .

٢ ـ كان سلاطين تركيا لا يسمحون بكلمة الشورى والدستور والعدل والأمة.

٣ ـ هجر تركيا أكثر أهلها من الظلم وإثقال كاهل الشعب بالضرائب .

٤ ـ الاستبداد بالرأى والاعتداد بالنفس شأن خلفاء آل عثمان .

٥ ـ التضييق على حرية الرأى وخنق حرية الصحافة وإلغاء كلمة الأئمة من قريش .

٦ ـ مظاهر الأبهة والمحافظة على حياة السلطان وقد وصل التبذير فى الدولة إلى حالة لا تطاق .

٧ ـ قصر الخليفة ملىء بالمشعوذين والدجالين من المشايخ يختلقون الرؤى يزعمون أنهم رأوها .

٨ ـ تعدد عناصر الدولة (البوسنة ـ الهرسك ـ صربيا ـ ألبانيا ـ اليونان ـ بلغاريا ـ رومانيا) .

٩ ـ إيقاد الغرب حرباً صليبية عن طريق البلقان وثورة الصرب والجبل الأسود.

١٠ ـ ظهور المسألة الشرقية والنزاع بين عناصر الأمم التركية من جهة ودخول الدول الغربية فى هذا النزاع لتحقيق أمانيها .

١١ ـ تصرف الخلفاء فى أموال الدولة بدون حساب ومساعدة أعوانهم .

١٢ ـ تفكير عبد الحميد فى الجامعة الإسلامية لكى يستعين بالدول الإسلامية على أوربا المستعمرة كان ينقصه خلوه من استبداد عبد الحميد .

١٣ ـ انهارت تركيا العثمانية عندما فكرت فى تكوين جامعة طورانية تعمل على إيقاظ القومية التركية وتحريك العناصر العربية .

١٤ ـ هجرة الناس من كثرة الضرائب وسوء جبايتها وإنفاقها فى الكماليات والملذات .

١٥ ـ أخذ على الخلافة التركية أنها لم تناصر مسلمى الأندلس .

تركيا الحديثة

لاشك مطلقاً فى أن أتاتورك فرض نفسه فرضاً على تركيا ، وحقق مطامعه فى إلغاء الخلافة وتكوين الجمهورية بجرة قلم ، تحت تأثير التهديد لرجال الدين الذين كانوا قد وصلوا إلى حالة من الجمود والغباء والضعف ، أثر عصور الذل والهوان التى عاشو فيها ، لا يرفعون رءوسهم ، ولا يظهرون بمظهر العزة والكرامة .

قام أتاتورك بإصلاحات قيمة ؛ طهر بها البلاد من جو الخمول والضعف الذى كانت ترسف البلاد فيه تحت تأثير حكم خليفة طاغية مستبد ، يضع السلطات كلها فى يديه ، وكذلك الأموال .

أقام أتاتورك حكمه على الإرهاب أكثر مما أقامه على المنطق أو التشريع السلم ، فقد تحركت الثورة من بعض الجهات على الحكومة الجديدة وعلى أتاتورك بالذات ، وتحرك الأفراد أيضاً ، فقمع الثورة فى قسوة ، ونصب المشانق ، وأرهب الرءوس التى كانت تشرئب ضده .

وهكذا كان أتاتورك يركز الحكم بأشد أساليب الانتقام من المتمردين ، لا يبالى بالسجن ولا بالنفى فى سبيل تحقيق أهدافه .

ومن أكبر عيوب أتاتورك أنه انصرف عن الإسلام انصرافا تاماً ، وجرد تركيا منه تجريداً ، فأصبحت بين عشية وضحاها بعد أن كانت موئل الإسلام وملاذه قطعة من أوربا ، يلبس أهلها القبعة ، ويتكلمون اللاتينية ، ويكتبون من الشمال ، وقد رفعت من الدستور دين الدولة الرسمى الإسلام .

وشغف بهذا التغريب كثير من الأذناب فى مصر ، ممن كانوا يوالون المستعمر باسم الحضارة وباسم حرية الفكر ، ورفعوا عقائرهم يدافعون عن تركيا ، ويطالبون لمصر بمثل ذلك ، غافلين عن أن مصر منار العالم الإسلامى وقاعدته ، وأنها قلبه النابض وحويته الزاخرة .

ولقد شاء ربك لهذه الأقلام أن تقصف أو تنحرف عن دعوتها الباطلة ، وتجارى تيار الإسلام الدفاق، الذى بدأت أضواؤه تعم المجموعة كلها ، فتشعرهم بمدى الفارق بين عزة التمسك بالإسلام الصحيح ، وبين ذل التجرد للحضارة الغربية الماجنة الداعرة القائمة على شهوات الخمر والنساء .

وإن كانت تركيا قد كسبت شيئاً من حريتها الجديدة ، فإنما كسبتها عن طريق قوتها العسكرية . أما الحضارة الغربية فلم تكن عند تركيا إلا بريقاً خلاباً ، ونزوة عاصفة ، انقلبت بها تركيا تمجد قوانين الغرب ولغته وحضارته ، وتتنصل من الإسلام والشرق تنصلا . وهاهى تشعر أن لاحياة لها ولا قوة إلا بالإخاء مع دول الشرق الإسلامى ليكون لها من هذا الإخاء سناداً إزاء الحادثات ، وقد بدأت تتنبه تركيا لهذا المعنى هـذه الأيام ، وهناك محاولات لعقد حلف بينها وبين العراق والجامعة العربية .

ولا يمكن أن ننسى مطلقاً أن انضمام تركيا إلى ألمانيا فى الحرب العظمى كان سبباً مباشراً فى تصريح بلفور المشئوم .

من الجائز أن تكون تركيا قوية عسكرياً ، ولكنها ضعيفة هزيلة اجتماعياً . فقد أصابت الحضارة المجتمع التركى بالرخاوة والتمزيق ، ولن يصلح أمره إلا إذا عادت تركيا مرة أخرى إلى حظيرة الإسلام .

ويبدو أن السر فى انفصال تركيا هذا الانفصال المتعصب من الشرق الإسلامى أمران :

(١) وقوف العرب فى وجه الترك وخصومتهم الأخيرة معهم .

(٢) وشعورهم بأن الإسلام هو سر ما أصيبت به تركيا فى عهد الخلافة من بلاء ، وإن كان هذا يخالف الحق فما كان الإسلام دائماً إلا عامل قوة وإنما التبعة على الذين تركوه وراء ظهورهم .

أما خصومة العرب فقد كانت مطالبة بحق ودفاعاً عن قومية أرادت تركيا إهدارها بتتريك العناصر العربية . وأما الإسلام وأثره فى ضعف تركيا أيام الخلافة فليس للإسلام ذنب . لأن الإسلام قوى وقواعده سليمة ، ولو سارت

عليها الأمة المسلمة واعتنقتها وأقامت أحكامه ونفذت شريعته لسما بها إلى ذروة القوة والمجد والسلطان ولكن العيب أن تعطل أحكام الإسلام ، وينصرف الخلفاء إلى الترف وإلى الاستبداد ، وأن يسير العلماء أذلة فى ركاب الغاصب ، وأن يضيع الشعب غفلة وفقراً وذلا وجهلا .

أما إلغاء التكايا والأوقاف وخزعبلات الدراويش وسخافات الطرقيين فهذا خير ماصنع أتاتورك . ولانختلف والمسلمين فيه إذأن هذه التكايا جرثومة الذل وما كان الإسلام يوما دين (دروشه) أو قبوع فى انتظار ماتجود به أيدى المحسنين وقد أعز أتاتورك القومية ففرض توظيف الأتراك فى كل عمل ووضع الثروات فى أيدى الوطنيين وألغى الألقاب وثار على الأمية .

* * *

أما تغيير اللغة وتمزيق الحجاب وقذف المرأة إلى المراقص والسينمات فهذا هو الجانب الأسود فى النهضة التركية . وماذنب المرأة وليس لها إلا ميدان واحد هو البيت . تنشىء الطفل وتعين على مهام الحياة وتدفع الرجل إلى مجد وطنه وعزة دينه . ومما يؤخذ على تركيا الحديثة أنها لم تظهر أى شعور من مشاعر الألم والمشاركة لمسلمى أندونسيا ولا لعرب فلسطين ولا لمسلمى المغرب كأنه لاصلة لها بالأقطار الإسلامية إطلاقا .

* * *

ومما يؤخذ على تركيا أخذها بالقانون السويسرى بما فيه من عيوب كزواج الأخوين فى الرضاعة وزواج المسلمة بغير المسلم مما لا يتفق مع نظام التوريث الإسلامى ، والأذان والصلاة بالتركية بدلا من العربية .

— ٢ —

تقاسى تركيا هذه الأيام أزمات شداد من ضغط روسيا بالنسبة لمسألة المضايق ورغبة روسيا فى اعتبارها مضايق تركية روسية واعتبار هذ الأمر بعيداً عن نطاق مجلس الأمن . ولا تزال روسيا توعز إلى الأرمن

بالثورة والانفصال من تركيا وتركيا لا تريد أن تسرح جيشها الكبير بالرغم من سوء الحالة الاقتصادية خوفا من روسيا . ولاتزال تركيا إلى الآن تقوم على نظام حزب واحد ولم تألف الحكم الديمقراطى الصحيح القائم على تعدد الأحزاب وهناك محاولات لإنشاء حزب آخر هذه الأيام .

وترى روسيا أن البحر الأسود ليس تركيا محضاً بل هو روسى أكثر منه تركى ذلك لأن تركيا تستطيع أن تتنفس بحرية من خلال بحر إيجة والبحر الأبيض بينما روسيا ليس لها سوى البحر الأسود فإذا أغلق عليها الدردنيل والبسفور فإن روسيا تكون دائما مهددة بالاختناق .

ولهذا السبب تطالب روسيا بأن يكون لها قواعد بحرية وجوية عند طرفى المضايق أى فى الجنوب فى شبه جزيرة غاليبولى وفى الشمال على شاطىء البسفور الأعلى.

والترك يفضلون أن يدخلوا فى حرب مهما تكن نتائجها شؤماً عليها على أن يفرطوا فى حق من حقوق السيادة مثل السماح لدولة أجنبية بإنشاء قواعد حربية لها على الأراضى التركية .

* * *

وبعد فإن الأمل فى تركيا كبير أن تنضم إلى عقد الدول الإسلامية مرة أخرى فتدخل فى هذه المجموعة التى تزحف زحفاً قويا إلى قواعد عزتها فى الشرق مرة أخرى فنحن لا نتخلى أبداً عن إخواننا مسلمى تركيا ونرغب أشد الرغبة فى أن تتحول الألوان القاتمة القائمة فى الحضارة التركية الحديثة مرة أخرى إلى ألوان إسلامية فتصبح تركيا دولة إسلامية حية تقيم شريعة الإسلام وتأخذ من الحضارة كل ما فيها من قوة وخير .

الحجاز وبلاد العرب

١ - أما بلاد العرب عامة فالحديث عنها لا يتعدى قوة عمان قبل الزحف الغربى ، أما باقى الجزيرة فقد جنى عليها المستعمر وقضى على العزة العربية فيها بالمال والذهب ، واستغل بعض الولاة والأمراء صداقة الغرب فوقع الخلاف بين الولايات بعضها وبعض حتى سادها جميعها ضعف ما تزال تمتد آثاره إلى الآن.

٢ - استولت انجلترا على عدن وبوغاز باب المندب وحاولت غزو اليمن فلم تتمكن ، فقد وقف أمامها اليمن ورفض الحضارة البراقة التى وراءها السيف والمدفع .

٣ - استفاد الإنجليز من الخلافات الأسروية والقبلية فى بلاد العرب ، وقد اتخذ العرب من تعدد الزوجات وسيلة إلى ربط أواصر النسب فنشأت الفتن فى البيوت وبين الإخوة والأمهات وانتهزها الإنجليز فأعانهم ذلك على إضعاف قوة البدن والروح ، وضعف النفوذ والسيطرة .

٤ - كثير من أمراء الجزيرة لهم مرتبات وهم متصلون بالقنصل الإنجليزى فى عدن.

٥ - الكويت تعدادها ٥٠ ألف نسمة على ضفاف الخليج الفارسى، وقد حاول الامبراطور غليوم أن يتخذها قاعدة فى التوسع نحو الشرق ومد خط حديدى من الآستانة حتى حلب ينتهى بميناء الكويت على الخليج الفارسى .

٦ - أمارة عمان رفعت علم العرب إلى أوج السماء فى القرن العاشر الهجرى ودامت نهضتها بعد الأندلس من ١٠٠٠ هـ إلى ١٢٥٠ هـ وكان أهل عمان سادة البحار الثلاثة العظمى ولهم أسطول من ٣٠٠ قطعة ما بين بارجة وقرقاطة ونسافة وحراقة وهو الأسطول الإسلامى الرابع بعد أساطيل معاوية وصلاح الدين وآل عثمان ، وقد قضت إنجلترا على هذا الأسطول .

٧ - هزم الإنجليز دولة زنجبار التى تأسست سنة ١٨٥٦ م كما هزموا دولة عمان ودمروا أسطولها كما دمروا أسطول البحرين .

٨ - تدخلوا فى شئون البحرية سنة ١٨٦٧ وعقدوا معاهدة مع عمان تضمن سلامة البلاد ومساعدة بريطانيا ومن شروط المعاهدة أن تتنازل عن حقوقها فى تجهيز الجنود البحرية والسفن الحربية على أن ترد انجلترا عنهم كل غارة .

٩ - ألبت القبائل بعضها على بعض حتى لاتتحد ولا تصبح جبهة فى وجه الاستعمار .

الحجـــاز

ظل الحجاز زمناً طويلا ساكناً تحت حكم الأتراك لايتحرك ولا يتململ من غفوته شأنه شأن الأقطار الإسلامية من حوله ، ولـكن دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب قرعت الآذان فأيقظت النوام إلى لون جديد من الحياة .

ذلك أن الإسلام كانت قد أصابته من جراء حكم الأتراك خفقة من نعاس فقد انصرف أهله عنه وانتهت حياة الفتح والجهاد فى الخلافة العثمانية إلى لون من الغفلة ، وآبت الأقطار كلها إلى حياة خاملة منحلة لاقوة فيها ولا حيوية وأصابت الغفلة الشرق الإسلامى كله ، ولم يعد الحكم العثمانى للمملكة الإسلامية الواسعة إلا لوناً من ألوان الجباية للأموال . يقوم بها أمراء وجباة ، قاسية قلوبهم ، لا يعرفون الأمانة ولا العدالة ولا الرحمة . لاهم لهم إلا جمع المال . لتثرى جيوبهم وليحملوا الباقى إلى دولة الخلافة فى الآستانة ، وعلى دول الخلافة بالآستانة خليفة يمثل المسلمين ، ولـكن ليس فى حياته أى صورة من صور الإسلام العملى اللهم إلا الاسم فهو يحيا حياة خاصة مترفة ، مطعمة حواشيها بالذهب والحرير . فى القصور المملوءة بالجوار والخدم والحشم وملك اليمين . وفيما بين هؤلاء الخدم من الرجال والنساء ، وما بين هؤلاء من البطانة والبلاط تحاك الدسائس وتصرف أمور الدولة وأغلب هؤلاء جواسيس من قبل ألمانيا وغيرها يحصون على الخليفة خطواته وحركاته .

أما الدين نفسه ، وجوهره وأهدافه ، فقد نسيتها دولة الخلافة نسيانا تاماً حتى خرج هذا الرجل من أواسط جزيرة العرب ومن نجد يدعوا إلى الله

ويحاول أن ينتزع من عقول الناس ماعهدته من خرافات وأباطيل .

* * *

كان محمد بن عبد الوهاب يقرع آذان من حوله بدعوة التوحيد مجدداً بها دعوة ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وقد تجرد لهذه الدعوة سنة ١١٥٠ هجرية فى نجد واستطار اسمه واجتمع حوله من هداهم الله إلى فهم الدين ومعرفته حتى اتصل أمره بآل سعود فنصروه وأيدوه واتصل نسب الشيخ بنسب آل سعود وقد تزوج محمد بن سعود بابنة محمد بن عبدالوهاب فولدت عبد العزيز الذى خلف إياه ١١٧٦ ﻫ وجمع بين سلطان جده محمد بن عبد الوهاب من الوجهة الدينية وسلطان والده عن الوجهة السياسية وبذلك دخلت الدعوة الدينية فى ميدانها السياسى واستولى على مكة ١٨٠١ م .

ومن ثم أصبح آل سعود موئل هذه الدعوة وسيفها المحارب وباسمها فتحوا الرياض سنة ١١٨٨ ﻫ ووصلت الدعوة الجديدة إلى أطراف الجزيرة وإلى حدود اليمن ثم استولى آل سعود على بلاد الحجاز وعلى مكة ١١٨٥ﻫ ١٨٠١ م وامتد سلطانهم أيضاً إلى ناحية الحسا وغيرها من نواحى شبه الجزيرة ينشرون مذهبهم ويدعون الناس إليه ويفتحون باسمه الأقطار واستتب الأمر لسعود بن عبد العزيز سنة ١٢٠٣ ﻫ فأصبح أمام الوهابيين وزعيمهم الأكبر. وقد أوفد جيشاً إلى العراق وكربلاء سنة ١٢١٦ ﻫ لتحطيم مزارات الشيعة بالنجف والكاظمية وغيرها . وظل أمرهم فى قوة وعزة حتى سنة ١٢٢٦ ﻫ حينما جاءتهم تركيا بجيوش محمد على وبهذه الحرب زال ملك آل سعود من الحجاز ومن نجد حتى جاء الملك عبد العزيز عبد الرحمن الفيصل آل سعود فأعاده وجدده .

وفى سنة ١٢٤٣ ﻫ عاد الحجاز إلى حكم العثمانيين بعد أن استبقاه محمد على لنفسه زمناً إلى أن تحالفت ضده دول أوربا وردوه إلى دولة الخلافة وبعودة العثمانيين إلى الحجاز عادت الفوضى وانتشر النهب والسلب حتى استولى على الحجاز كله آل سعود مرة أخرى عام ١٣٤٤ ﻫ - ١٩٢٥ م .

* * *

وقفت تركيا أمام دعوة محمد بن عبد الوهاب التى ظهرت بنجد . وأمام محاولاتها لدخول مكة وهدم مابها من مزارات وقباب وقفة الخائف المرتجف فكانت ترسل إليهم بين الحين والحين جيشاً لردهم وكانوا هم أشد قوة من تركيا وأقوى ساعداً فكانت ترتد هذه الجيوش مهزومة . وما كانت تركيا تريد فى ذلك الوقت شيئاً إلا أن تغرى القبائل بعضها ببعض لتوقع بينها العداء حتى يظل لها السلطان وتظل لها الجباية التى هى كل الرباط الباقى فى ذلك الزمان بينها وبين الولايات الإسلامية ، وقد كانت الدولة العثمانية فى حالة النزع تريد أن تظل هذه الأقطار تابعة لها وتحاول بقدر ما تستطيع أن ترد عنها غارة التمرد والتحرير ؛ ولم تكن الخلافة العثمانية وقتذاك بما يشرف المسلمين ولا بما يعمل لعزة الدين إنما أصبحت المسألة مسألة ملك وسلطان لا تنظر فيه إلى تعزيز الروابط الإسلامية بينها وبين الأقطار المختلفة ولقد أخذ على تركيا أنها أصمت آذانها عن صراخ مسلمى الأندلس حين كانت المسيحية الظالمة تذيقهم مر العذاب فضلا عن أنهم ما كانوا يعرفون من الإسلام إلا قشوره وقد ضعف فهم الإسلام الصحيح فى أيامهم وتغلبت نزعات الجدل والكلام وانصرفت عنايتهم إلى زخرفة المساجد وتزويق المصاحف وانتشرت فى أيامهم الطرق الصوفية وأصبح لها سلطان على القصر . وانصرف العلماء إلى موائد الخلفاء لاهم لهم إلا تفسير الأحلام ومتابعة الخلفاء فيما هم فيه من جهل وغطرسه وشر وانصرف الخلفاء إلى القصور وما فيها من بهرج إلى الحفلات وما فيها من ترف وإلى ذات الخليفة وما يتناشد حولها الشعراء من آيات المديح والإطراء وإلى الاستبداد المطلق فى الحكم فما يستطيع أحد من الرعية أن يتحدث فى حرية أو يعترض على أمر ما من أمور الدولة .

ولم تنظر تركيا إلى دعوة محمد بن عبد الوهاب نظرتها إلى دعوة إصلاح فى العقيدة إنما نظرت إليها نظرها إلى قوة سياسيه تريد أن تجتاح جزءاً من أملاك الدولة العثمانية وتجردها منه ولذلك سرعان ما سلطت عليه محمد على .

وطبيعى أن مثل هذه الدعوة قد اتهم القائمون بها فى أول الأمر بالكفر والزندقة لأنها كانت دعوة غريبة فى وقت طغى فيه الجهل على العقول طغياناً

شديداً فلم يعرف الناس عن دينهم شيئاً إلا أنه تواكل وقناعة وخمول، وتوسل إلى القبور وإلى سكان القبور وذلك من آثار الفتن التى حاولها أعداء الإسلام حين أعجزتهم الحيل عن هدمه سياسيا فجاءوا إليه عن طريق سحق العقيدة الصحيحة وإحلال لون من الإشراك بالتوسل والالتجاء إلى القبور .

وكذلك فعل السعوديون عندما استولوا على الحجاز سنة ١٣٤٤ هـ فقد هدموا المزارات والقباب وكشفوها وأزاحوا عنها الستائر والأغطية ذلك لأنهم يؤمنون بأن العقيدة الصحيحة السليمة تتطلب اتصالا صادقا بالله وعزوفا كاملا عن القبور وعن التوسل بها .

حاول السعديون تنفيذ عقيدتهم بقوة السيف فى إرهاق بالغ ولكنهم بعد أن استتب لهم الأمر فى شبه الجزيرة خففوا شيئاً ما من هذه الحدة وجنحوا إلى لون من الاعتدال ليكونوا أقرب إلى الأذهان وأرضى للناس .

وقد تكونت كتائب المجاهدين تكويناً يدعو إلى الإعجاب فقد كانوا يسمون بالإخوان ويعرفون بتمسكهم بالسنة مما جعلهم ينفرون من استعمال آلات الحرب الحديثه فى القتال ولا يعترفون بغير السيف والقوس سلاحا، ويرون أن إطلاق الرصاص ليس من الشجاعة فى شىء .

عرف الإخوان أيضاً بشجاعتهم فى الحرب وآمنوا بأن من قتل عدواً لدين الله وشرع نبيه الكريم دخل الجنة . ولذلك ترى البدوى منهم فى حومة القتال مملوءاً إيماناً ويقيناً بصحة عقيدته يقدم على بذل مهجته رخيصة فى ميدان الوغى ويسمون دوى الرصاص ريح الجنة ولا يحبون الشعر ولا يؤثرون على القرآن وما صح عن رسول الله شيئاً ونساؤهم مثال الحشمة ويسدلون لحاهم وينادون الملك عبد العزيز بقولهم ياطويل العمر .

وقد كانوا من هيبتهم إذا ذكر اسمهم على حدود العراق أو شرق الاردن أو الكويت استولى الرعب على القلوب ، وكانت الأم تودع ابنها وتقول اللهم اجمعنا وإياك فى الجنة .

* * *

عرف عن الوهابيين منذ أن أذنوا بدعوتهم سنة ١١٥٠ هـ ومنذ ارتبط آل سعود بآل عبد الوهاب فسارت الدعوة مع السيف - عرف عنهم رغبتهم فى مهاجمة مكة والمدينة بين حين وحين راغبين إلى إذاعة مبادئهم فى هذه الأماكن - يحملون الرجاء فى تأمين الطريق أيضا مما فيه من غوائل المجرمين الذين يهاجمون القوافل وينهبونها وهم يعلمون أن هذه الدعوة لابد أن تصل إلى الحرمين حتى تكون قد حققت أهدافها . وقد حاربتهم تركيا وسلطت عليهم محمد على الذى كان يفكر فى إقامة أمبراطورية عربية وكان يرغب فى أن تكون الحجاز قلب هذه الأمبراطورية لولا أن عاجلت أوربا محمد على فردته عن فكرته وهزمته وقصرت قواه فى داخل وادى النيل .

فعاد الحجاز إلى حوزة تركيا التى كانت تغرى قبائل شبه الجزيرة لتشن الغارات بعضها على بعض فتصبح الفتن مستمرة بين آل سعود وآل الرشيد وينتهى ذلك بخروج الأمير عبد الرحمن الفيصل إلى الكويت ونزوله ضيفاً على مبارك الصباح إلى رمضان سنة ١٣١٩ حين خرج عبد العزيز على رأس أربعين من رجاله ليرد ملكه المضيع وقد هاجم الرياض وانتزعها من آل الرشيد وعاد لآل سعود عزهم وملكهم .

وبدأت حركات السعوديين على الجزيرة تلفت نظر أوربا وأخذت ألمانيا وانجلترا كل منهما تحاول أن تخطب ودابن السعود . وقامت الحرب بين شمر ونجد سنة ١٩١٥ وفاوض الإنجليز الملك عبد العزيز على ألا يهاجم أصدقاءهم ولا يساعد أعداءهم ومقابل ذلك اعترف به الإنجليز حاكما لنجد وأمدوه بالمال والسلاح.

ولقد ظلت أمانى الانجليز للشريف حسين تضايق عبد العزيز السعود لأنه سيكون أمبراطور العرب كوعود لورنس . ثم اختلف الشريف حسين مع الإنجليز بعد معاهدة (ساكس باكو) وامتنع عن التفاهم معهم فأعانوا عبد العزيز على مهاجمة الحجاز وقد كان ينتوى تأمين طريق الحج . فلما هاجم الحجاز حاول حسين الاستنجاد لانجليز فأصموا آذانهم عنه، فتم لعبد العزيز الاستيلاء على الحجاز كله.

عرف عن الإخوان النجديين أنهم لا يعرفون الحرب المنظمة ولا يعرفون الصبر على الحصار ، وطاعة الإمام التى يفرضها المذهب الوهابى تدعو إلى أن يكون بيد الإمام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

الثورة العربية الكبرى

١ — احتل الانجليز مصر ١٨٨٢ — الفرنسيون تونس ١٨٧١ — ايطاليا طرابلس ١٩١١ فرنسا المغرب ١٩١٢

٢ — البعثات التبشيرية الأوربية والأمريكية إلى الشرق العربى .

٣ — فكرة الدولة العثمانية فى تركيز العناصر التابعة لها لتحويلها دولة طورانية تحيى مجد جنكيز جان وتيمورلنك وتبتعد عن الإسلام .

٤ — اندلاع نيران الحرب الكبرى ١٩١٤ وانضمام الأتراك إلى الألمان وسعى الإنجليز لاستمالة العرب ووعدهم الشريف حسين بإنشاء دولة عربية كبرى .

٥ — فتك الأتراك بالنخبة الممتازة من رجال العرب الأحرار فى سوريا ونصب المشانق ونفى مئات الأسر العربية الكبرى إلى الأناضول.

كل هذه العوامل هيأت للثورة العربية الكبرى التى قام بها الشريف حسين - وكان مركزها الحجاز - بعد اتفاقه مع السير هنرى مكماهون وتوقيع معاهدة بينهما عن إقامة الدولة العربية الكبرى محدودة بحدودها لتضم الحجاز والشام والعراق، وقد دعت هذه العوامل العرب بزعامة الشريف حسين إلى الاستجابة إلى هذا الأمل والوقوف فى صف الحلفاء . وكان عداؤهم لتركيا وموقف تركيا منهم بإثارة فكرة (التتريك) أولا ثم بقتلها زعماء العرب وأحرارهم ثانيا اهم ماحفزهم للانضمام إلى الحلفاء .

وتطوع شباب العرب العراقيين والسوريين واليمنيين والفلسطينيين فى الثورة الجديدة وهاجروا إلى الحجاز واشتركوا فيها ولكن الانجليز لم يكونوا مخلصين لعهودهم ولا صادقين فى وعودهم ذلك لأنهم بعد أن اطمأنوا بإعلان العرب عداءهم للترك حصروا الثورة فى دائرة ضيقة لاتتعدى الحجاز نفسه وفى الوقت الذى عقدت فيه معاهدة سوريا (حسين مكماهون) كانت تعقد معاهدة أخرى بين الانجليز والفرنسيين باقتسام العراق وسوريا .

كان من نتائج هذه الثورة أن أصبح فى الحجاز حكومة هاشمية مستقلة على أن

يتولى فيصل عرش سوريا ثم تقوض فرنسا هذا العرش فيعطى عرش العراق ويتم أمر ولاية الأمير عبد الله على شرق الأردن ثم ينفى الملك حسين إلى جزيرة قبرص .

* * *

غضب العرب على موقف الترك منهم وتجاهلهم إياهم والتفكير فى تتريكهم أملا فى إنشاء جامع طورانية تعيد مجد الأتراك القدماء الذين جاءوا من أواسط آسيا. وهم تحت سيطرة هذه الفكرة قد نسوا مقامهم فى العالم الإسلامى كدولة الخلافة الإسلامية .

حينذاك بدأ تفكير الأمة العربية فى التخلص من نير تركيا وما أذاقته للعالم الاسلامى من ذل وهوان وأخذت الأقطار الاسلامية تعقد المؤتمرات وتدرس الخطط — فى الحجاز والعراق وسوريا وفلسطين . وكانت أقوى الأقطار وأشدها حماسة وقوة (سوريا) .

واجتمع المؤتمر العربى فى باريس وعقد جلساته سنة ١٩١٣ رغبة فى حمل الحكومة التركية على الاهتمام بالمسألة العربية وفى سنة ١٩١٤ دخلت تركيا الحرب ضد الحلفاء ومع ألمانيا وأخذت تمعن فى رجالات العرب شنقا ونفياً فى الوقت الذى كانت تركيا أحوج ماتكون فيه إلى كسب ود العرب .

ثم أخذ زعماء العرب — تحت ضغط الحوادث — يفاوضون الشريف حسين أمير مكة فى زعامة هذه الحركة وعرفت تركيا رغبة العرب فى الثورة عليهم والتحرر من نيرهم والسعى للاستقلال فأرسلت جمال باشا السفاح إلى سوريا وكانت خطته استبدادية محضة يحاكم زعماء العرب ويسوقهم إلى المشانق وينفى من يشاء منهم إلى الأناضول فزادت بذلك نقمة العرب على الترك كما أسلفنا وتدخل اليهود فى إغرائه بالعرش . وتيقن الأتراك أن الشرارة الأولى ستندلع فى الحجاز فأرسلوا إلى حدوده ٣ آلاف مقاتل وظلت دمشق مركز الحركة العربية ومركز الأحزاب السياسية يزيدها ما يفعل جمال باشا فى أحرارها قوة وحماسة وإيمانا بوحدة العرب وبوقوفهم فى وجه تركيا واستخلاص حرياتهم منها .

* * *

وظل فيصل حجر الرحى فى هذه الثورة إذ كان دائم الاتصال بجمال وأنور . وحلقة الاتصال بين مكة والآستانة يدرس القضية العربية بدقة ليعلم هل وصل اللهب إلى الفتيل وهل وصل الأمر إلى الحد الذى يساعد على الثورة ولا ينى يواصل درس الخطط مع رجال الثورة فى دمشق .

ثم اتصل اللورد كتشنر بالشريف حسين فى مكة فى أول الحرب العامة يسأل عن موقف العرب من هذه الحرب وقد ظهرت نيات تركيا فى الانضمام إلى المانيا ، وأكدت انجلترا وعودها بمساعدة العرب فى نيل حرياتهم . وتقدم الحلفاء فى تركيا وفى العراق ـ عندئذ أعطى العلماء فى سوريا مضبطة سرية إلى فيصل بتوقيع علماء سوريا يبايعون فيها الحسين بن على ملكا على البلاد العربية وكانت موقعة أيضاً من رجال الجيش وضباطه كما مثلت فيها سائر الطوائف كالدروز والبدو .

ماطات انجلترا أول الأمر الشريف حسين فى اعطائه وعداً واضحاً معلوما واستمرت المخابرات بينه وبين مكماهون حوالى عام ، كان الأتراك خلاله قد مزقوا الجماعات العربية والأحزاب السياسية وسجنوا كثيرا من الاحرار.

وفى غضون سنة ١٩١٦ أعلن الشريف حسين الثورة بمحاصرة القوات العربية للمراكز التركية وفى أمد بسيط أصبح فى قبضة العرب ٢٢ ألف جندى تركى.

وتأكد لدى الشريف حسين أن الثورة هى التى تحقق مطالب العرب وقد استمر التفاهم بينه وبين انجلترا وأمدته الأخيرة ببعثة عسكرية وكميات وافرة من الذخائر وأمدت فيصل بالكابتن لورنس الذى كان يرى فى فيصل زعيم النهضة العربية وإن أزعج هذا الشريف حسين الذى جعل نفسه المرجع الأول والاخير فى كل أمر .

أصبحت البعثة العسكرية هى الهيئة الاستشارية لجيش الشمال الذى يقوده فيصل ويحاصر (الوجه) وينبع . ومن قواده جعفر العسكرى ونورى السعيد يعملان بهمة ويتهيئان لاقتحام العقبة . وجيش الإنجليز بقيادة المارشال اللنبى يمكن مركزه فى فلسطين ومن ثم اتفقت انجلترا والشريف على أن يعمل الجيش العربى مع جيش الحلفاء فى التقدم إلى فلسطين فيصل « فيصل » إلى العقبة فى (آب ١٩١٧) .

وفى صحراء سينا قوة بقيادة اللنبي وهناك قوى أخرى تعمل فى العراق وتحارب الترك. وتركيا ما تزال مهتمة بشط العرب وبإمدادات العراق. وانجلترا تتحفز لاحتلال العراق محافظة على المصالح البريطانية فى الهند وآبار البترول فترسل حملة قوية إلى جهة البحرين وتتصادم هذه القوات الهندية مع القوات التركية فى أرض العراق ويتولى العمل وتنظيم الخطط الحربية برسى كوكس، وانجلترا تحاول تنظيم الحياة فى العراق بما يوافق العقلية العربية لتحمل أهله على مساعدة الحكومة الجديدة — والحجاز كله قد انضوى تحت لواء الشريف.

واضطرت انجلترا أن تحارب العرب فى العراق لأنهم كانوا نواة الجيش التركى وظلت المناوشات والوقائع بين الترك والعراق والإنجليز حتى سنة ١٩١٧ حيث تمكن الجنرال مود من اقتحام بغداد واحتلالها وكان ذلك قبل وصول فيصل إلى العقبة بشهر واحد، ثم تم للإنجليز بعد ذلك الوصول إلى الحدود العراقية.

٭ ٭ ٭

بينما تتقدم القوات العربية والإنجليزية نحو سوريا ويجلى عنها الترك بقوة العرب وهمة فيصل ومعونة جعفر ونورى، إذ يظهر خبر اتفاقية (سيكس باكو) السرية التى عقدتها فرنسا وانجلترا لتقسيم سوريا والعراق والتى أرسلها الألمان إلى الأتراك فأرسلها هؤلاء بدورهم إلى المعسكر الحربى العربى. وقد كان وقع هذه المعاهدة بعد المحادثات الشفوية والتحريرية التى تمت بين الشريف ومكماهون العميد البريطانى فى مصر ١٩١٥ غاية فى السوء فقد تكشف للعرب بعد هذا الجهاد الشاق الطويل أنهم إنما كانوا يعملون لحساب انجلترا وأن الانجليز كانوا يبيتون لهم سوء النية؛ والعرب الذين خدعوا اليوم ما كانوا ليعملوا مع الحلفاء إلا وهم على وعد أكيد وصك مكتوب بالمحافظة على استقلالهم، ولكن هكذا وعود الغرب يذر رمادها بعد كتابتها فى الهواء.

كانت إنجلترا ترعى مصالح حليفتها فرنسا وتبغى إعانتها على مواصلة العمل معها فعقدت معاهدة سيكس باكو على حساب العرب اتفقوا فيها على أن

تكون إدارة فلسطين بواسطة نظام دولى وأن تقوم فرنسا على سوريا والانجليز على العراق وأن يترك للعرب ما بقى من البلاد لإنشاء دولة مستقلة بها .

* * *

تلك حقائق مؤلمة يجب على شباب العرب والإسلام أن يعرفها ويفقهها جيداً ليكون على بينة صادقة ويقين أكيد من أن وعود الغرب كاذبة وأن معاهداتهم يمكن تمزيقها وقت كتابتها أو بعده بقليل . وأن المفاوضة ليست الوسيلة الصحيحة لنوال الحقوق إنما هى لون من الاستجداء . والوسيلة الصحيحة هى انتزاع هذه الحقوق انتزاعا . والعمل لها بجهد متواصل مركز .

تنكرت انجلترا لهذا التصريح وأبلغت العرب أنه غير صحيح؛ ثم يظهر بعد فى مؤتمر الصلح أنه الحق الواضح الذى يقوم على أساسه الاحتلال فى الأقطار العربية .

وهكذا تظهر سياسة الغرب الاستعمارى على وجهها الصحيح — سياسة الغش والتدليس — سياسة الألفاظ المطاطة المحذرة الخداعة . سياسة الكلام على نسق والعمل على نسق آخر . سياسة الحقد الدفين للعرب وللإسلام — سياسة تحطيم القوى المتجمعة وتمزيق الكتائب المتحدة: هذا درس يجب ألا ننساه إلى جوار الدروس التى فصلناها فى هذا الكتاب .

استغل الانجليز موقف العرب من تركيا وخصومتهم لها وكراهية الشريف لهم لدحر الترك وإجلائهم عن هذه المنطقة العربية الممتدة من جزيرة العرب إلى حدود البحر الأبيض غرباً وإيران شرقا وقد عملت الجيوش العربية الباسلة جادة لتنال حريتها وتقدم شبابها . لتقيم على أشلاءه الشهيدة بناء الوطن الجديد فإذا هى تلاقى بعد النصر والظفر ، بلاء التقسيم والاستعمار والاستبداد بأبشع صوره .

* * *

كان موقف دمشق بعد ذلك موقفاً مضطرباً بين إنجلترا وفرنسا وبين فيصل والجمهورية .

فرنسا تطالب أن يعهد إليها بإدارة ساحل لبنان وانجلترا تريد أن تفى بتعهداتها لصديقتها فرنسا . أما العرب فماذا يهم الإنجليز منهم وقدأدوا واجبهم على الوجه الذى أرضاهم وحققوا بدمائهم هزيمة الترك وأجلوهم : عليهم أن ينالوا الجزاء استعمارا وتمزيقاً . حقاً لقد كان العرب أداة لإجلاء الترك عن بلادهم ليسلموها للانجليز والفرنسيين وآاسفاه .

وتتابعت النكبات بتصريح بلفور وبمعركة ميلسون وبثورة العراق ومصر.

ملاحظات على الثورة العربية الكبرى

١ - قتال العرب والترك قصة قومية لا دينية فقد خرجت المسألة من دورها الديني إلى دور التعصب القومي .

٢ - كانت رغبة العرب الأولى هي الحرية والسيادة والتخلص من نير تركيا فقد شعروا أن تحرير العرب هو الهدف الأول - وهذا هو الرد الإيجابي لموقف تركيا ومحاولتها سحق القومية العربية تحت لواء تتريك العناصر؛ تلك الفكرة التي كانت تدعو لها جماعة الاتحاد والترقي .

٣ - حالة تركيا الحربية كانت تستدعي منهم الكياسة والحكمة في كسب العرب إلى صفوفهم لا إلى إزعاجهم بهذه الفكرة العقيمة مما دعاهم إلى التمرد عليهم وإنشاء الجمعيات السرية ضد دولة الخلافة .

٤ - بعثة أحمد جمال باشا إلى دمشق كانت سبباً مباشراً في اشتداد النفرقه بين العرب لما عاملهم به من قسوة ولما قدم من زعمائهم وأحرارهم إلى المشانق فقد كانت حركة إرهابية محضة غير قائمة على التحقيق الدقيق أو على إعدام من ..اعد العدو فحسب بل أصدر أمره بإعدام سادة البلاد وعلية القوم وأهل الرأي .

٥ - برهن أهل سوريا على إيمان صادق بقضيتهم ورجولة قوية في مختلف مواقف الثورة حتى أن الرجال كانوا يتقدمون إلى المشانق ممتلئين ثقة بأنهم يموتون شهداء في سبيل تحرير العنصر العربي وفي سبيل عزة الوطن مما لا ينسى لسوريا اعترافا بأنها كانت ولازالت حجر الزاوية في بناء صرح الوطن العربي المتين فقد كتبت الصفحات الأولى في عزة العروبة ومجد الإسلام بمداد الشهداء ولا ينسى أبداً موقفها الباسل في موقعة ميلسون وثوراتها المتصلة في سبيل حريتها وعزتها .

٦ - كان موقف تركيا دائماً من الشريف حسين موقف العنف فقد كتب إلى دولة الخلافة يطلب العفو عن المتهمين رغبة في إرضاء العرب ومداواة

لقلوبهم ليقضوا فى صف الدولة العلية فكانت إجابتها جافة جداً ، وكان طبيعياً أن هذا ليس (أسلوب الوقت) خصوصاً بالنسبة للعرب وهم يمثلون غالبية الممالك التابعة لتركيا .

٧ - حاصر الأسطول البريطانى مسالك البحار إلى الحجاز ، والحجاز مورده من الحج ، وقد قطعه الحرب فتعذر وصول المؤن إلى الحجاز .

* * *

أمام هذه الفظائع كلها كان لابد للشريف حسين خصوصاً وقد غلى مرجل العرب نقمة على الترك بالمركز الهام للقضية العربية (سوريا) وبعد تفويض أهل سوريا له كان لابد له أن يعلن الثورة على تركيا وأن يدخل الحرب مع الحلفاء متأكدين من الوعود التى قطعت بإقامة المملكة العربية بحدودها التى تم الاتفاق بين الشريف وبين انجلترا بشأنها . وإن كنا نأمل إن شاء الله أن تتحقق آمال العرب فى القريب ويتم لهم أمر حريتهم وعزتهم .

حركات الزحف

الاستعمار السافر وجهاد الأقطار العربية[1]

فى نصف قرن

كلمة عامه

مصر ـ السودان

سوريا ـ العراق

تسيطر الدول العربية على أرض مساحتها ٤ ملايين كيلو متر مربع يقطنها ٧٠ مليون نسمة وقد كانت هذه الأقطار تابعه للخلافه العثمانية ثم استقلت مصر داخلياً فى أيام محمد على وإن بقيت تابعة لتركيا من ناحية واحدة هى أداؤها الجزية ثم امتنعت أيضاً عن ذلك بعد عقد ولاية مصر فى محمد على وأبنائه .

كان الاستعمار الغربى مقنعاً يخفى وراء التجارة والارساليات العلمية قبل الحرب الكبرى ويعد العدة لغزو منظم اجتماعى وتجارى وعلمى إلى أن أعلنت الحرب الكبرى وانضمت تركيا إلى جانب ألمانيا . وانضم العرب إلى جانب الحلفاء ثم أسفر الاستعمار بعد أن وضعت الحرب أوزارها عن معاهدة (سكس باكو) التى عقدتها فرنسا وانجلترا وأطلقت كل منهما يد الأخرى فى شطر من الأمبراطورية العربية التى تعاهدت انجلترا مع الشريف حسين على معاونة العرب فى أقامتها .

ماذا كانت حالة الممالك العربية كلها إلى قيام الحرب الكبرى ١٩١٤؟ كانت فرنسا قد استولت على تونس ١٨٨١ ودخلت مراكش ١٩١٢ وكانت إيطاليا قد استولت على طرابلس ١٩١١ وكانت مصر محتله منذ ثورة عرابى وكان السودان يحمل اسمين مشتركين ويحمل قوة واحدة تعمل فيه دون حساب أو رقابة .

وكان الشريف حسين قد استقل بحكم الحجاز واتفق مع بريطانيا على إقامة مملكة عربية بعد نهاية الحرب ومن ثم والت سوريا والعراق والحجاز الحلفاء

---

(١) الحديث عن ليبيا والمغرب وفلسطين فى الجزء الثانى .

وفتحت صدرها لجيوشهم لتتخلص من نير الأتراك فى انتظار فجر جديد من الحياة الحرة الكريمة .

وكانت تركيا تواجه الثورات المختلفة من أجزاء الامبراطورية العثمانية وكان قوادها ينتقلون شمالا وجنوباً وشرقاً وغرباً ليطفئوا الثورات وليقضوا على حركات التمرد الفاشية من جراء الاحتلال الغربى فى طرابلس وسوريا والاستقلال فى القوقاز والبلقان .

وكانت أوربا قد انتبهت وأخذت تعين دول البلقان على حرب الأتراك باسم الصليبية وكانت إيران تقاسى بلاء الاستعمار وضغط الروس والإنجليز .

وكانت الحياة عامة تلبس لوناً قاتماً : يقظة مشردة بعد طول ركود وشعور بالضغط الاستعمارى الملثم الذى كان يفعل فعله فى الأقطار الإسلامية والرجل المريض فى أشد حالات الضعف .

هذا الاستعمار الملثم الذى كانت أوربا تتقدم به فى الشرق كان يحمل فى أعماقه كراهية للإسلام وحقداً عليه - ورغبة فى اقتناص ما فى هذه البلاد من الخيرات والموارد والغلات ومنابع البترول والحديد التى بدأت تستولى عليها أوربا منذ أن وقفت بجوار دولة الخلافة تحميها .

ولكن هل كان الشرق الإسلامى نائماً حقاً ؟ الواقع أن عوامل اليقظه كانت قد دبت فيه إلى حد كبير منذ بدأت حركات السنوسى والمهدى وعرابى ثم كانت حركات محمد على الكبير وأفكار جمال الدين الأفغانى قد قرعت آذان الشرق ونبهته إلى التفكير - فقد تنقل جمال الدين بين الأقطار الإسلامية يدعو إلى الجامعة والوحدة وخلفه من بعده محمد عبده وعبدالرحمن الكواكبى فى الكشف عن أساليب المستعمرين وطرائق الاستبداد فى حكم الشرق . كل هذه العوامل كانت خمائر اليقظة الكبرى التى كانت تنتظر دورها المهيأ لها بعد الحرب الكبرى وبعد تمزيق الوطن الإسلامى بين ايطاليا وفرنسا وانجلترا . هذا التمزيق الذى أنتج الثورات والحركات الفعالة فى كيانه وفى التدليل على أن الحياة قد دبت فيه فقد انتهت الحرب الكبرى كما أسلفنا بمعاهدة سكس باكو فقسمت الشام الى أربعة أقطار ثم قسمت المغرب وحدثت ثورات فلسطين والعراق وسوريا ومصر وليبيا ولم يبق جزء من العالم الإسلامى لم تتناوله الثورة .

وبعد أن ورثت أوربا أملاك الدولة العثمانية بعد العهد المؤكد والوعد المكتوب إلى الشريف حسين صرحت تصريح ٢ نوفمبر ١٩١٧ هذا التصريح المشئوم الخاص بوعد انجلترا بإقامة وطن قومى فى فلسطين ومن ثم دخل الإنجليز القدس فى ٩ ديسمبر ١٩١٧ وخطب اللورد اللنبى خطبته المشئومة فى ٧ نوفمبر ١٩١٨ حيث قال : (إن الغاية التى يرمى إليها الحلفاء من خوض غمار الحرب فى الشرق هى تحرر الشعوب التى تحت حكم الأتراك وتأسيس حكومات وطنية تستمد سلطتها من رغبة السكان الوطنيين ومحض اختيارهم وأنه ليس لبريطانيا ولا لفرنسا أى قصد فى وضع نظم خاصة لحكومات هذه الأقطار »

وكان هذا الكلام المعسول شبيهاً بالكلام الذى قاله برسى كوكس فى العراق فقد تبين لنا أن المستعمرين يحسنون صياغة الألفاظ ولا يبالون بالوعود الباطلة .

وذلك يتضح جليا بما لاقته هذه الأقطار من المستعمرين طيلة هذا الربع قرن وما كان من تشريد الزعماء والأحرار والطبقة المثقفة وتكميم الأفواه والنفى والتشريد لكل من يحاول أن يقف فى وجه الاستعمار الغاشم مستعينين على ذلك بالخونة من أبناء البلاد بما فصلناه فى رسالة «الإسلام يزحف» وفى رسالة حضارة استعمار وتغريب»

أين ضاعت وعود الانجليز للعرب فى الحرب الكبرى بعد أن تخلوا عن الترك وعاونوهم ؟ أهو استبدال استعمار باستعمار أو ظلم بظلم ؟ أهذا التمزيق الذى مزقوه لجسد الأمة العربية الإسلامية ؟ أهذه الشوكة الصهيونية التى يريدون أن يغرسوها فى صدر الأمة العربية ؟ أهذه الأرواح التى استشهدت وتستشهد فى فلسطين والمغرب وسوريا ومصر من جراء الظلم والعنف الذى أذاقه المستعمر للبلاد العربية .

* * *

لقد مزقوا الشرق العربى تمزيقا، وحالوا بين أهله وبين بعضهم وبعض بالحواجز والسدود . وأقاموا فى كل قطر نظاماً يختلف عن نظام القطر الآخر بغية فى التفرقة . حكم مطلق فى المملكة السعودية واليمن . حكم ملكى فى مصر والعراق وجمهورى فى سوريا ولبنان . حكم قبائلى فى إمارات خليج العرب

وجنوب اليمن . الإدارة الداخلية على طريقة شرعية فى بعض النواحى وعصرية فى البعض الآخر .

فهى شرعية إمامية كاليمن — وهى لاتتقيد بالأصول الفقهية الإسلامية كمصر والعراق وسوريا .

وهناك نظام القبائل والإمارات فى لحج وحضرموت ومسقط وعمان وزنجبار أقطار مابين مستقل وشبه مستقل وحماية واستعمار ووصاية وخاضع للانتداب ، ولم يقف الأمر عند هذا بل هناك التمزيق الداخلى : بربر وعرب فى شمال أفريقيا ، دروز — علويين فى سوريا ، مسلمين ومسيحيين فى لبنان — سنة وشيعة وأكراد فى العراق — سودان شمالى وسودان جنوبى فى وادى النيل . ومن لم تمزقه الطوائف مزقته الأحزاب .

وإن كنا نعتقد أن وجود عناصر غير إسلامية فى الأقطار الإسلامية لايثير أى مشكلة فى وجه الاتحاد والجامعة لأن هذه العناصر عاشت قروناً عديدة إلى جانب أقرانها متمتعة بجو من التسامح التام فضلا عن أن الأقطار الإسلامية تأمل فى سياسة التجمع لتقف صفاً واحداً أمام الاستعمار الغاشم .

* * *

صفدت أوربا الشرق بالاستعباد وبرعت فى أساليبه خلال هذا النصف قرن ولكنه كان يلقى دائماً أشد المقاومة فى كل الأقطار الإسلامية بما ستراه مفصلا فى الفصول المقبلة والأمل معقود فى الشباب المتحمس لوطنه ولدينه أن يكون دائماً مثال الاستعداد للتضحية والفداء والذود عن هذه الحرية وأن يتعاون ويتكتل حتى يكون قوة منظمة تصدر عن رأى وعن قيادة ولها غاية مرسومة ومنهاج محدد ولينظر شبابنا فى هيئاتنا العاملة فسيرى فيها المخلصين الصادقين الطاهرى الأيدى الذين لايخافون فى الله لومة لائم . ولا يخشون أحداً إلا الله . أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتدا .

لا عزة إلا بالإسلام ولا حكم إلا بالقرآن - مادة خالدة يجب أن تحفر على صفحات القلوب وأن تتجاوبها الألسنة صادقة مؤمنة متأكدة أنها حبل النجاة .

قضية شمال وادى النيل

موجز للحركات الفكرية والسياسية فى مصر فى العصر الحديث

١ — بونابوت فى مصر .
٢ — قضاء محمد على على المماليك .
٣ — حصر إرث المملكة المصرية فى ذريته .
٤ — حصر مناصب الجيش المصرى فى الأتراك والجراكسة .
٥ — موقف أحمد عرابى وزملائه من هذا الوضع .
٦ — مطالبته بالدستور والحكم النيابى .
٧ — دخول الإنجليز البلاد بعد تفاقم الديون باسم حماية الخديو والدفاع عن عرشة سنة ١٨٨٢ .
٨ — نفى زعماء الثورة بعد محاكمتهم إلى سيلان .
٩ — ممثل انجلترا فى مصر هو المتصرف فى كل شىء من وراء ستار .
١٠ — تنظيم الضرائب وتقدم الرى والزراعة وإنشاء المحاكم الأهلية .
١١ — حرية الصحافة والحرية الشخصية .
١٢ — بدأ النزاع بين مصر وانجلترا فى سبيل تحرير مصر .
١٣ — التعليم فى مصر يخرج موظفين .
١٤ — محاولة إفهام المصريين أنهم أبناء قطر زراعى لايصلح للصناعة وبذلك يؤخذ قطن مصر إلى أوربا .
١٥ — رءوس الأموال والمصارف وإدارة دفة الأسواق بأيدى الإنجليز واليهود .
١٦ — التفكير فى مجلس تشريعى نصف مقاعده للأجانب من كل الجنسيات .
١٧ — احتلال مصر وإعلان الحماية فى أول الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ .
١٨ — دعاية الحرب الكبرى الأولى باسم حق تقرير المصير .
١٩ — ثورة ١٩١٩ - ومطالبة مصر بالجلاء وتصريح ٢٨ فبراير .
٢٠ — اتفاق ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ ومعاهدة مونترو ١٩٣٧ .
٢١ — الحرب الكبرى الثانية وميثاق الأطلنطى وإعلان مصر الحرب على المحور .

بونابرت فى مصر ـ الحملة الفرنسية يوليو ـ ١٧٩٨

كان نابليون يفكر فى غزو مصر تفكيراً له مقـــدمات طويلة شغل بها الغرب كله ، فقد كان مركزها الخطير دائماً موضع التقدير والنظر من أوربا التى تفتحت عيناها الاستعماريتين على غزو الشرق خاصة ، بعد المحاولات الاستعمارية الأولى التى حاولتها هولندا فى خليج فارس ، وشركة الهند الشرقية التى أصبحت سلطاناً مسلحاً فى الهند ـ وأصبحت الهند درة التاج البريطانى ، وأصبح طريقها وتأمينه من أهم ما تحرص عليه انجلترا وتحافظ عليه ـ ومصر فى طريق هذا الخط وهى قلب الشرق الأوسط وزهرة الشرق أجمع وطريق الهند. فلا بد أن ترنو إليها فرنسا وتهتم بها . وفرنسا فى فجر نهضة نابليون ترغب أن تزاحم انجلترا وتسابقها وقد كان لها من قبل حصة فى الاستيلاء على سواحل الهند وكان هذا الغزو الفرنسى أول قوارع الايقاظ بعد طول السبات المخيم الذى ابتلى به الشرق خلال العهد التركى وأول دواعى التحفز بعد طول الغفلة والذل فقد حرك هذا الغزو الوطن كله وأثار فى شبابه وشيوخه روح الثورة والحرب والمكافحة والشعور بالغاصب وسلطانه فكان هذا أول علامات الشفاء للمريض الذى طال به المرض حتى أصبح حياً كميت وموجود كمفقود .

كان نابليون يطمح كالإسكندر أن ينشىء امبراطورية فى الشرق فكان هذا مفتاحاً لرغبته وبالرغم من أن الحملة فشلت وأن أسطول نابليون تحطم . وأن الشعب ثار على الفرنسيين داخل البلاد فى أكتوبر ١٧٩٨ أى بعد مضى أربعة شهور إلا أنها كانت كما قلت أولا نداء للإيقاظ ومنبها لتسلط القوى الغربية المسلحة على الشرق النائم وفى مقدمته مصر ،

وقد كانت مصر فى حالة من الفوضى عجيبة فقد ألف الناس بطول عهود الاستبداد والذل والمهانة والتواكل والتسليم للغاصب والرضى به . وذلك لأن العلماء أنفسهم كانوا بعيدين غاية البعد عن فهم الإسلام فهماً صحيحاً وكانوا قد ساروا فى ركاب الغاصب راضين بموائده ونضاره فكان طبيعياً أن

يصبح الشعب فى مثل هذه الحالة من الذل والمهانة لأن قادته وموجهيه انصرفوا عن فهم دينهم والتمسك به .

وكذلك كان العلماء أنصاراً لنابليون وقد استفاد منهم كما كتب فى مذكراته لأنه عرف منهم التسليم والقبول والبعد عن العزمة الصادقة والتمسك بالحقوق وعرف عنهم مغمزاً كبيرا إنهم لا يركبون الخيل ولا يعرفون فنون الحرب فهم لذلك أسلم من يعين على الاستعمار وعلى حكم الشعب وترضيته فاتخذهم أعواناً — وفى عام ١٧٩٩ قفل نابليون عائداً إلى فرنسا بعد أن استعصى عليه الفتح فى الشرق . وكانت هذه الحملة أول من حمل إلى الشرق حضارة الغرب الماجنة الداعرة ممثلة فى الجنود الفرنسيين واستعدادهم الخليع وتهالكهم على الخمر ورغبتهم فى محاربة الإسلام والعبث بتقاليد المسلمين وإهدار كرامة المصريين ، ولا عجب ففرنسا تعتبر نفسها حاميه الكنيسة وناشرة لواء الحضارة الجديدة. وهى لا تنسى هجمات مسلمى الأندلس على حدودها واقتحام بلادها حتى نهر اللوار وموقعة بلاط الشهداء .

وبالحملة الفرنسية تنبهت انجلترا إلى موقفها من تركيا الضعيفة التى عجزت عن رد نابليون وبموقع مصر فى طريق الهند فبدأت تتدخل فى أمر مصر وترقبها فى حذر ويقظة وتنتهز الفرصة الموتية لتضع يدها عليها .

هذه الفرصة جاءت أيضاً عن طريق فرنسا بحفر قناة السويس فاقتربت الهند وأصبحت مصر مركزاً خطيراً بالنسبة لطريق الهند ثم جاءت ديون اسماعيل وأخطاء الثورة العرابية حين غفل عرابى عن قناة السويس بخداع دلسبس بحرمة المعاهدات وقد كان لا يدرى أن المعاهدات فى عرف ساسة الغرب حبر على ورق سرعان ما تنتهك.

وقد كان دخول فرنسا إلى مصر مشجعاً للدول الأخرى على مهاجمتها والاستيلاء عليها والاستفادة من مركزها فى خطوط المواصلات والموقع الحربى والوضع السياسى والجغرافى على شاطىء البحر الأبيض بين القارات الثلاث .

وقد ظلت فرنسا بخلافها مع انجلترا تنافسها على الشرق إلى وقت قريب

وظلت نصيرة لمصر وموئلا للدعاة أمثال مصطفى كامل باشا حتى اتفقتا على تقسيم حصة الاستعمار بينهما على أن تتنازل فرنسان عن مصر لانجلترا ويتنازل الإنجليز عن تونس لفرنسا وبذلك انكشف لمصر أن فرنسا كانت معهم لا لأنها عدوة الاستعمار بل لأنها تريد نصيبها مع الإنجليز . وعرفت مصر بعد ذلك أن الغرب كله سواء فى هذه الغاية . بل لعل فرنسا أشد استبداداً وقضاءاً على كيان القومية العربية فيما تحتل من أقطار ، وأنها ما كانت تقف هذا الموقف من مصر إلا لتصل إلى جزء من حصة الرجل المريض ، ويبدوا أن نابليون كان يفكر فى تكوين وحدة عربية إذ كانت الخصومة والعداء العنصرى قد استحكم بين تركيا والعرب ومن ثم ظهرت المسألة العربية . ومن ثم بدأ المصريون يفكرون فى آفاق جديدة من حضارة أوربا وبدا اشتراكهم فى حكم البلاد بدلا من الأتراك فى الأعمال الهامة .

* * *

حملة نابليون كانت أول هزة رجت الشرق العربى ودعت أبناءه إلى التضامن فقد كانت الحملة موجهة إلى الشرق كله . وقد فشلت من الناحية الحربية والسياسية ولكنها أدخلت الحضارة الغربية إلى الشرق وأيقظت أفكاره . ولقد عرف نابليون كيف يسخر بالمصريين فملأ منشوراته بكلمات روحية ذكر فيها الله والإسلام والقرآن وأعلن كراهته للمماليك - وحبه للباب العالى ، ووعد بترقية المصريين فى الوظائف . وأنه ضرب كرسى البابا فى طريقه إلى مصر لأنه عدو المسلمين ، بل وبالغ أكثر من ذلك فقال إن الفرنسيين مسلمون ، كل ذلك رغبة فى توطيد مركزه ، واستعمل العلماء لهواه واستخفهم فأطاعوه وقربهم وأغراهم بأنهم هم أصحاب البلد وأن المماليك غرباء ، ووهب ذهبه للعلماء والخونه ، واستعمل ذهبه للمناخين والمدافعين عن الوطن وقد دخل فرسان الجيش الفرنسى الأزهر بخيولهم فذهب العلماء لنابليون محتجين فاشترط عليهم نابليون أن يصدروا بياناً للناس أن الطائفة الفرنسية تحب الإسلام وقد حاول نابليون أن يدخل فى أذان الشعب أن فتحه لمصر قدر وقضاء من الله يجب الامتثال اليه والرضى به .

* * *

كانت حالة مصر بعد الحملة الفرنسية وعودتها للأتراك أسوأ مما كانت أولا فقد عرف الأتراك بأنهم لا يقيمون وزناً للاصلاحات الداخلية وانما يهمهم (الجباية) ولما كانت موارد ثروة مصر فى تأخر فقد كثرت حوادث السلب والنهب والسطو على البيوت والمحال التجارية وكانت حالة المجتمع تنذر بشر كثير فقد انقسم الأتراك ونشب بينهم خلاف كان يؤدى دائماً إلى معارك مستمرة. وقد كان من نتائج الحملة ضعف أثر المماليك بعد أن كان لهم السلطان الأول فى مصر من قبل. وقد أصبح للإنجليز منذ الاتفاقية التى تمت بينهم وبين الأتراك ١٧٩٩ سلطان، وحاصرت قواتهم سواحل البلاد وموانيها إلى ١٨٠٢ م وكانت انجلترا تعمل على زيادة نفوذها داخل البلاد. وكان من نتائج هذه السياسة أن اتفقت تركيا وفرنسا فآزرت الإنجليز المماليك داخل البلاد لتحفزهم للثورة على النفوذ التركى بقيادة محمد بك الألفى ثم فكرت بعد ذلك فى غزو مصر ١٨٠٧ فأرسلت حملة بقصد الفتح والغزو فردت مهزومة على أعقابها.

محمد على ١٨٠٥

استيقظ الشعب المصرى وعرف حقوقه وتمسك بها وعرف أنه تحت لواء دولة ضعيفة تستجدى عطف انجلترا مرة وفرنسا أخرى فاختار لنفسه حاكما رضيه واطمأن إليه هو محمد على - ومهما يكن من أمر محمد على فإن الشعب هو الذى اختاره ورضيه. وقد حقق محمد على ثقة الشعب فيه فبدأ عهده بضربات قوية كانت إرهاباً لتركيا ولدول الغرب بأن مصر تسعى إلى الحرية من أقوم الطرق فوقفت أوربا باهتة متربصة تنتظر لهذا الجواد القوى كبوته.

١ - بدأ محمد على حكمه بالقضاء على المماليك وكان أظهر ضربة سددها إليهم مأدبة القلعة ١٨١١.

٢ - هزم حملة انجلترا التى جاءت إلى سواحل مصر بقيادة فريزر ١٨٠٧.

٣ - حملته على بلاد العرب ١٨١٢.

٤ - حملته الى السودان ومنابع النيل ١٨٢٠.

٥ - حرب المورة ١٨٢٤.

وهكذا بدأ محمد على حياته العملية بنشاط عجيب فى الداخل والخارج واستطاع فى خلال خمسة عشر عاما أن يوطد مركز مصر خارجياً كدولة مستقلة مهيبة الجانب لا تقنع بصلتها بتركيا بل تؤمن بقوتها كدولة حرة - وداخليا بالتنظيم والتكوين وعلى أساس ذلك وطد محمد على مركزه كحاكم محنك قدير بعيد النظر قوى العارضة .

أما فى الداخل فقد كان الاضطراب يشمل المجتمع كله خاصة الضرائب والجيش فأعاد الأمور إلى نصابها فكون الجيش وبذل فى ذلك جهوداً جبارة وأصلح الزراعة بتوفير طرق الرى وتوزيع الماء وإدخال أنواع جديدة من المحصولات كالقطن والحرير والدخان ، وفرض الضرائب ونظم عمليات التصدير وكون الأسطول وسهل المواصلات وعنى بالتعليم داخلياً وإيفاد البعثات المنوعة فى كل فن . أنشأ المصانع فى مصر تمد الجيش والأسطول بلوازمه فاستخدمت الأيدى العاملة وعم الرخاء .

أما فى الخارج فقد كان محمد على طموحا إلى تكوين دولة عربية كبرى وقد كان يعرف الخلاف القائم بين الأتراك والعرب ، ورغبة العرب فى الانضواء تحت لواء موحد ، فكانت حروبه فى جزيرة العرب وفى الشام وفى السودان وفى شبه جزيرة المورة إعداداً لهذه الفكرة التى لم تلبث أوربا أن تجمعت لها وهدمتها فقد أزعجها محمد على بانتصاراته وقوته ، وقد كانت الكتيبة المصرية قديرة على خوض المعامع والحروب . وأنشأ محمد على الأسطول البحرى بعد جهد ، فقد كانت تحاك الدسائس لتحول دون شرائه لوازمه من الأخشاب وغيرها ، ونزلت أولى السفن بالبحر فى ٣ يناير ١٨٣١ .

وعنى محمد على بشق ترعة المحمودية وبناء القناطر الخيرية وتهيئة طريق القوافل بين البحرين لنقل التجارة من أوربا والشرق الأقصى ، وأصبح الجيش مكوناً من ٢٠٠ ألف جندى ، وكان بمصر ١٤٥١ دولاب غزل — و ١٢١٥ نول يعمل عليها ٢٠ ألف عامل .

وأنتجت المصانع كل أنواع الأقمشة من البفتة إلى الأجواخ وكذلك الأسلحة والطرابيش فضلا عن مسابك الصلب ومعاصر الزيوت .

نفارين ١٨٢٤

كانت شبه جزيرة المورة قد ثارت تريد الانفصال عن الدول العثمانية وعجز السلطان عن قمع الثورة فعين محمد على حاكما على كريد والمورة وأصدر إليه أمره بارسال كتائبه لقمع الثورة فأرسل إلى كريد حملة مكونة من ١٧ الف جندى ، وكان أسطول هذه الحملة مكوناً من ١٩٨ قطعة مابين حربية ونقلية وتجارية فقمعت الثورة وسقطت أثينا فى ١٨٢٧ .

عندئذ تدخلت أوربا المسيحيه لتحمى اليونان من تركيا المسلمه دولة الخلافة ومن مصر القوية الفتية فأقرت هذه الدول معاهدة لندن ١٨٢٧ التى تقضى بفصل اليونان عن تركيا نهائياً . وقد وقعتها انجلترا وروسيا وفرنسا واشترطت هذه الدول أن من حقها التدخل بالقوة ومن ثم أرسلت هذه الدول أساطيلها إلى خليج نفارين وتوقف الباب العالى ولم يعترف بالمعاهدة وساء التفاهم بين رجال الأسطول المصرى والأوربى قد دارت معركة نفاربين فى ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ وحطم الأسطول المصرى فى ثلاث ساعات .

ومهما يكن من أمر غضب السلطان ومطالبته بتعويض وإعلانه الجهاد ضد روسيا عدوة تركيا فإن المسألة انتهت بأن أرسلت فرنسا جيشاً فى ١٥ ألف لمراقبة إخلاء الموره من جيوش محمد على ورأى محمد على أن أصراره على موقفه فى شبه الجزيرة إنهاك لقواه وإضعاف لمركز مصر فأمر بالجلاء عن الموره وأصبحت مصر فى حالة سلم مع دول أوربا ـ وأخترقت روسيا البلقان وسقطت ادرنه أمامها ثم هددت القسطنطينية فوافق السلطان إزاء هذا التهديد على معاهدة لندن بشأن اليونان .

سوريا ١٨٣١

إذ ذاك قام الخلاف بين محمد على والسلطان وكان مصدره حقد السلطان على جرأة محمد على وقوته الحربية ثم على موقفه فى شبه جزيرة المورة وانسحابه وعدم مساعدته لتركيا فى حربها مع روسيا . وعندئذ بدأ محمد على يفكر فى الاستقلال أو الانفصال عن تركيا وبدأ محمد على فى مهاجمة عكا ـ لأنه كان

يرى سوريا متاخمة لمصر وليأمن غائلة العدو المهاجم من الشرق ولغناها بالمواد اللازمة للأسطول . وأرسلت الحملة حتى وصلت إلى أقليم أطنة ، وقد رحب بها أهالى هذه الجهات رغبة فى التخلص من نير الأتراك ، فاستمرت الحملة حتى وصلت (قونية) وعندئذ طلب السلطان المساعدة من روسيا التى أرسلت مندوبها فى ١١ يناير ١٨٣٣ إلى الإسكندرية ليهدد محمد على باسم القيصر وعندئذ يوقف الجيش المصرى عند (كوتاهية) وأرسلت روسيا جنداً إلى تركيا وحينذاك انضمت فرنسا وانجلترا إلى محمد على ليرغما روسيا على سحب جنودها من تركيا - وانتهت هذه الأزمة بين مصر والباب العالى والدول بعقد معاهدة كوتاهية التى اعترفت فيها تركيا بمحمد على حاكماً على مصر وسوريا وأقليم أطنة فى أبريل ١٨٣٣ .

كان هذا الموقف هزة كبرى تنبىء بفجر جديد استيقظت فيه الدول الأوربية روسيا وفرنسا وانجلترا للشرق، ولمصر بالخصوص، ولتركيا بالذات؛ وتأكد لهذه الدول ضعف تركيا عن مقاومة وال من ولاتها ، فبدأت تتحد وتترك خصوماتها التى كانت تشغلها إلى التحالف لتقسيم تركة تركيا الضعيفة التى تستجير فى أزماتها بأوربا وروسيا - وكانت روسيا ذلك الوقت طامعة فى البسفور والدردنيل والوصول إلى البحار الدافئة .

وهزت هذه الأزمة تركيا والسلطان . ثم تتالت الحوادث بثورة سوريا عام ١٨٣٤ لإصلاحات مصر ، وتوقف محمد على عن دفع الجزية إلى الباب العالى توطئة لاستقلاله بمصر وتخلصه من السلطان ومن ثم أرسل محمد على إلى الدول يطلب منها استقلاله عن الباب العالى ١٨٣٨ لأنه أخضع نجد ودانت له شبه جزيرة العرب وأقام فى مصر الأسطول ودور الصناعة والمدارس فكان جواب الحكومة الإنجليزية أنه من المستحيلات تنفيذ مشروع محمد على - وأجابت فرنسا بأنها ستضع كل العقبات ضد تنفيذ هذا المشروع - وانتهى ذلك إلى قيام الحرب بين مصر وتركيا ٦٠ ألف مصرى أزاء ٨٠ ألف تركى فى موقعة نصيبين ٢٤ يونيه ١٨٣٩ دحر فيها الجيش العثمانى وانحاز الأسطول التركى إلى محمد على وبذلك فقدت تركيا أسطولها وهنا بدأت فرنسا وانجلترا تحاولان

إيقاف الحرب خوفاً على زيادة سلطان روسيا وتدخلها - وأرسلت الدول المشتركة مذكرتها المشهورة فى ٢٧ يوليو ١٨٣٣ تتضمن رأى الدول الخمس فى المسألة الشرقية ، وتعلن بأنها لا تقبل أى صلح يتم أو اتفاق يبرم مع محمد على مالم توافق عليه الدول وعندئذ عقدت الدول معاهدة ١٥ يوليو ١٨٤٠ (انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا وتركيا) بإعطاء مصر لمحمد على وراثة وولاية عكا طول حياته وتهدده بالحرب فى حالة رفضه . ولما لم يقبل محمد على هذه المعاهدة فقد وقعت الحرب بينه وبين الحلفاء فى ١٥ سبتمبر ١٨٤٠ وانتهت بهزيمته وانسحبت القوات المصرية من سوريا وانتهى الأمر بجعل مصر وراثية فى محمد على وأبنائه ١٨٤١ وهكذا كاد الغرب للشرق فى شخص مصر وشخص محمد على فقد خشى الغرب أن تمكن هذه القوة للعزة الإسلامية والعربية فى الشرق بفضل قوة جيوش مصر وأسطولها فتصدت الدول لهذا الخطر الداهم وأجمعت على تحطيم مصر وتمزيق هذه المملكة العربية المكونة من سوريا وشبه جزيرة العرب وحوض وادى النيل وكانت هذه هى الصدمة الثانية للشرق فى فجر نهضته بعد غزو نابليون ، ولكن محمد على كان قد هيأ الأذهان فى الشرق بحروبه وفتوحه لنهضة قوية فقد برهن على أن الجندى العربى المسلم قوى متحفز وكفاه فخراً أنه أعد الكتائب المدربة للحرب وأنشأ الأسطول وحرك الأقطار التى أضعفها الخمول .

نهضت مصر بفضل همة محمد على وتقدمت على الشرق كله . بل تقدمت على تركيا نفسها وأصبحت مثال القوة والحيوية وتركيا لاتزال غافلة عن مصيرها .

قناة السويس :

كانت قناة السويس النكبة الكبرى التى هيأت للغرب تدخله الاستعمارى فى شئوننا فقد رفضها محمد على وتمت فى عهد اسماعيل ، وأرهقت القطر بما كلفته من ديون لها ولما تبعها من إعداد لفتحها ولاستقبال الوفود وغرقت مصر فى أيام اسماعيل فى الديون . وجلبت قناة السويس على مصر امتيازات عدة للدول الغربية . وكانت شروط حفرها تحوى كثيرا من التعسف

والإرهاق . فضلا عن أنها كانت سبب هزيمة أحمد عرابي ودخول الإنجليز مصر.

كان إسماعيل يرمى إلى سياسة توحيد وادى النيل والوصول إلى مصبه ، وكان يرمى من استقبال وفود الدول إعلان الإمبراطورية المصرية من منبع النيل إلى مصبه . ولكن الغرب وقف فى سبيل هذه الحقيقة مكابراً باسم الامبراطورة أوجينى .

حقاً إن مصر قد نهضت فى عهد اسماعيل وفتحت أبوابها على مصراعيها لحضارة الغرب ولوفوده ولخيره وشره وكان هذا العهد بدءا لما تلاه من إسراف فى قبول حضارة الغرب وما كان له من أثر فى إضعاف الروح الإسلامية .

وإلى ذلك الوقت لم تكن هناك بوادر (إسلامية) على صفحة الشرق إلا مافهم الناس على طول عصر الغفلة من أن الإسلام هو الصلاة والصيام وبناء المساجد وإطالة اللحى وحمل المسابح — وقد كانت الروح الغربية تتقدم فى الغزو بإنشاء المدارس للجاليات المختلفة ودخول الأجانب الذين استقدمهم إسماعيل فى البلاد وشغل بعض الوظائف وقد كانت بعوث الشباب إلى أوربا لها أثرها فقد حمل معه من الغرب كل مارأى غير مفرق بين مايسعد الوطن ومايشقيه وقد أصبح الأمر عدوى وشعوراً بالنقص وغروراً فكانت موجة من الاستغراب فى الكلام والمشية والملبس وتقليد كل غربى إلى أن بعث الله للشرق رجلا مجدداً داعياً للإسلام الحنيف هو جمال الدين الأفغانى ١٨٧١ أمد الشرق بروح جديدة ترمى إلى غرضين :

١ - رفع الرأس عالياً . والشعور بالعزة ومغالبة الاستعمار ومكافحة الاستبداد .

٢ - العودة إلى تعاليم الإسلام وجمع شمل العالم الإسلامى تحت لواء واحد قوى يأخذ من حضارة الغرب خيرها ويطارد شرها - وبالجملة فأظهر مافى هذا العهد قناة السويس (١) وخسارة مصر من جراء ديون إسماعيل بعد

---

(١) بدء حفر القناة سنة ١٨٥٩ وسخر فيها المصريين قدمت الحكومة بلا أجر ٤/٥ العمال اللازمين للحفر وكان عددهم ٢٥ ألف عامل يبدلون بغيرهم كل ٣ أشهر وبلغت تكاليف القناة ١٧ مليون جنيه

أن أصبحت مصر مطمح أنظار الدول وخاصة انجلترا التى كانت قد عملت على الاحتكاك بمصر أكثر من ذى قبل وأثرت قناة السويس فى مركز مصر التجارى فانقطع عنها ما كانت تربحه من أجور المرور بين البحر الأبيض والأحمر فضلا عمن هلك فى القناة من زهرات الشباب المصرى

الديون

عقد سعيد أول قرض فى ١٨٦٢ وقدره ٣ر٢٩٢ر٨٠٠ جنيه
ثم عقد إسماعيل قرضاً جديداً فى ١٨٦٤ « ٥ر٧٠٤ر٢٠٠ «
ثم أقرض مرة أخرى من جراء خسائر قناة السويس ٠ر٣٣٦ر٠٠٠ «
ثم فى ١٨٦٨ ١١ر٨٩٠ر٠٠٠ «
ولسبب إسرافه وتدخل الدول أقرض فى سنة ١٨٧٣ ٣٢ر٠٠٠ر٠٠٠ «
واقترض الخديو من الداخل بإصدار قانون المقابلة سنة ١٨٧١ : ١ر٨٠٠ر٠٠٠ «
وباع أسهم قناة السويس سنة ١٧٨٥ ٣ر٩٦٧ر٥٨٣ «

ومن ثم تدخلت الدول وتنازعت على الإدارة المصرية بحجة سوء الحالة فى البلاد وشيوع الجهل والاختلاس والأمراض وأنشىء صندوق الدين بعد أن بلغت الديون سنة ١٨٧٦ ٩١ر٠٠٠ر٠٠٠ بفائدة ٧ فى المائة تسدد فى ٦٥ عاما

وأرسلت أوربا لجنة دولية ١٧٨٧ للتحقيق مع الخديوى فنزل عن جزء من أملاكه يبلغ دخله ٤٢٣ر٠٠٠ جنيه فى العام - وعين وزراء أجانب فى المالية والأشغال وزادت الحالة سوءاً بتدخل بسمارك ١٨٧٩ وانتهى ذلك بنصح الدول لاسماعيل (١) بالنزول عن عرشه لتوفيق ثم عزل الباب العالى اسماعيل فى ٣٠ يونيه ١٨٧٩ فسافر إلى ايطاليا وترك البلاد مرتبكة أشد الارتباك من من جراء ديونه.

---

(١) بلغت قوة الجيش فى عهد اسماعيل ٨٩٠٨٨ ضابطا وجندياً وبلغ الأسطول الحربى ١٨ سفينة تجارية.

عرابى :

انتهى عهد اسماعيل وبدأ عهد توفيق . والحالة غاية فى الشدة والدول الأوربية الدائنة لمصر يشتد سلطانها ويعج البلد بمندوبيها . وانتهى ذلك بتصفية الدين فى ١٢ ابريل ١٨٨٠ على أساس ٩٨٫٧٤٨٫٩٣٠ جنيه وتضم مصلحة الجمارك وضريبة الدخان وضرائب الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط . وذلك بعد خمس سنوات من أشد السنين . وكانت مصر قد تقدمت نوعا ما وبدأت الحركة الفكرية فيها تأخذ لوناً جديداً خاصة بعد وصول جمال الدين الأفغانى وتكوين مدرسة السياسة الإسلامية الجديدة التى كانت أول عوامل اليقظة بعد غفوة الخلافة التركية - كان جمال أول حاد دعا إلى الاسلام بعد أن أغرق الغرب الشرق بحضارته وبما فيها من ديون واستبداد وإدارة للأسواق التجارية ودولاب الاقتصاد فقد رمى الغرب الشرق ببلاء الحضارة من خمر وفتن فى المجتمع وزندقة وإلحاد فى الفكر .

استجاب الشباب لدعوة جمال الدين ، وبدأت القلوب تتفتح لهذه الروح التى طال غيابها عن الشرق ، موطن الروحية ومشرق الأديان ، ومنزل الرسل والأنبياء .

هذا الشرق الذى كان له فى التاريخ عزة ، وقوة وفتح ، بفضل ماعرف من عدالة الإسلام وشريعته النابضة بالحياة والقوة . ذلك أن جمال الدين كان يطوف الشرق الإسلامى داعياً فى حماسة فياضة وبيان رائع ، حاملا على الاستبداد حملة شعواء ، وهو يغزو فى طريقة القلوب بسحر بيانه ، وقوة إشعاعه ، متحدثاً عن سر القوة والتحرر ؛ وسر العزة والكرامة الإيمان والصبر . القوة على مدافعة الظلم وانتزاع أسباب الجبن والخوف من الغاصب ، والوقوف موقف الثبات بالحق والدفاع عنه .

وكذلك بدا نور الإسلام يشرق فى قوة على يد هذا الفاتح المسلم الذى كان يسمو فى دعوته حتى يطالب بالجامعة الإسلامية فى أقطار الإسلام التى مزقها الغرب أو كاد ، والتى غفلت دولة الخلافة عنها حتى أصبحت كما ترى .

وكان الشرق الإسلامى ، وكانت مصر فى أشد الحاجة إلى دروس العزة ، - فالعزة هى المفتاح السحرى للقوة والكرامة - واليقظة والتحرر - التى جاء بها جمال الدين من أقصى المشرق ليقولها داوية ، لا يخاف أحداً ، ولا يهاب مخلوقا ، ولا يخشى إلا الله .

وكذلك وعد الله أن يرسل لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها ، ويرفع عن بصيرتها حجب الجهالة والغفلة ، وقد كان للشرق بعد دعوة جمال وأتباعه أمثال الكواكبى ومحمد عبده - فجر جديد ، أوله ثورة عرابى : ذلك الرجل الذى كان يجمع إلى الإسلام والإيمان عزة الوطنى الذى يدافع عن الدين والوطن معاً .

وكذلك كانت فى نفس الوقت حركة المهدى فى السودان ، وثورته تستق من نبع جمال الدين ، وتتشابك مع ثورة عرابى وجهاد محمد عبده .

وكانت الصحراء الغربية تعج بنفس الدعوة بلون آخر على أيدى السنوسيين فى جهادهم الدينى الذى بدأ سنة ١٢٤٢ هـ ١٨٣٣ م .

هذه علائم اليقظة الإسلامية فى فجرها الجديد . وكانت تلبس ثوباً دينياً وسياسياً وعسكرياً بعـد أن كانت قاصرة على لون قومى ضئيل الحيوية . فما توجد قوة تمد الجهاد وتغذيه أبلغ أثراً ولا أشد من قوة العقيدة التى تذلل كل صعب والتى تقذف فى القلوب إيماناً كاملا ، وجرأة صادقة ، وشجاعة متحمسة تضعف أمامها عقبات الخوف وأشباح الموت .

إذن فقد استيقظ الشعب فكانت ثورة عرابى التى هى - مهما يقال فى أمرها - بدء نهضة وإن كانت أصيبت بالعطب فى أول خطواتها ، فإنما كان ذلك بالخداع والدس والرشا من العدو ، ولم يكن ضعفاً من عرابى . وقد كانت انجلترا تتربص لاستعمار مصر ووضع يدها عليها ، وتنتهز الفرص لذلك منذ فتحت قناة السويس ، فلما جاءت الفرصة عاجلتها بكل الوسائل والأسلحة ، وكان أغلبها ويا للأسف دنيئاً خسيساً . وإلا فإن مثل هذه الثورة كان عادياً جداً فى تاريخ النهضات ، وفى عهود اليقظة ، وهو أقل ما يجب أن يقف به وطن أمام حرية مسلوبة ، وعزة ضائعة ، ولن ينسى التاريخ أن عرابى كان رجلا وأنه كان قد أدى واجبه .

ثورة عرابى ١٨٨٢

١ ــ ثورة طبيعية قومية ، كانت ضد التدخل الأجنبى ، هدفها تثبيت الحكم الدستورى وضمان مبادىء الحرية والمساواة .

٢ ــ كان بدؤها اضطهاد عثمان رفقى ناظر الجهـــادية للضباط المصريين ، فأنابوا عنهم عبد العال حلمى وعلى فهمى وأحمد عرابى .

٣ ــ بدأت الحركة بمظاهرة عابدين الأولى ، فعزل عثمان رفقى وعين محمود سامى البارودى .

٤ ــ مظاهرة عابدين الثانية ــ طلب عرابى زيادة عدد الجيش إلى ١٨ ألفاً ، وتشكيل مجلس نيابى وإقالة الوزارة .

وهذه المظاهرة الثانية ٩ سبتمبر ١٨٨١ ، كانت من أروع المظاهرات فقد تحرك عرابى بعد أن أبلغ القناصل والحكومة فى ٢٥٠٠ جندى و١٥ مدفعاً إلى ميدان عابدين ، ومن ورائه الشعب ، وتقدم عرابى ممتطياً جواده ، شاهراً سيفه ، فقال له الخديوى : « ترجل واغمد سيفك » ففعل ، وتقدم ووراءه أربعون ضابطاً وقد قال لهم الخديوى : « أغمدوا سيوفكم وعودوا إلى أماكنكم » فلم يفعلوا ، وظلوا وقوفاً ؛ فقال الخديوى : « ماأسباب حضورك والجيش إلى هنا » ، قال عرابى : جئت أعرض عليكم طلبات الجيش والأمة ، وكلها طلبات عادلة ؛ وبعد أن سرد طلباته قال له الخديوى : « أنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم إلا عبيد إحساننا » . قال عرابى : لقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا ميراثاً وعقاراً . ثم انصرف الخديوى إلى داخل قصره ؛ وأخذ كلفن يحادث عرابى ويتحداه ، فيقول له : ماذا تفعل إذا لم تجب إلى ما تطلب . قال عرابى : هذه كلمة لا أقولها إلا عند اليأس والقنوط . ثم أجيب إلى إسقاط الوزارة ، فشكر عرابى الخديوى وانصرف . وكان موقفه هذا مشرفاً لأن الأمة كانت وراءه ، وكان يتكلم باسمها ، فسقطت وزارة رياض باشا وعين شريف باشا .

٥ — أرسلت إنجلترا المذكرة المشتركة فى ٨ يناير ١٨٨٢ ، وكانت أول التدخل الفعلى المكشوف .

٦ — عين عرابى وزيراً للحربية ١٨٨٢ ، ورأس الوزارة محمود سامى البارودى ، واختلفت الوزارة والخديوى ، وأرسلت فرنسا وإنجلترا أسطولا مشتركا إلى الإسكندرية بقيادة (سيمور) لتهديد العرابيين.

٧ — عند ظهور الأسطول فى المياه المصرية تشجع رعاع الأجانب وتحرشوا بالمصريين ، وقامت معركة الإسكندرية ١١ يونيه ١٨٨٢ - وطلب الإنجليز إيقاف تحصين قلاع الإسكندرية وضرب الأسطول قلاع الإسكندرية ١٥ طلقة ساد بعدها الفزع فى الإسكندرية كلها ونزلت الجنود فى ١٥ يوليو ، فكانت أول خطوة للاحتلال وادعى الإنجليز أنهم يوطدون نفوذ الخديوى .

٨ — وزع الإنجليز نشراتهم التى يقولون فيها إنهم لم يأتوا هذه البلاد بقصد الغزو والفتح ، إنما حضروا لردع العصاة وإيقاف تيار الفتن وتأييد سلطة الخديوى .

٩ — علم العرابيون أن الإنجليز سيدخلون عن طريق الإسكندرية فأهملوا تحصين طريق الإسماعيلية .

١٠ — أسرع عرابى لملاقاة الانجليز قرب كفر الدوار ثم علم أنهم عولوا على فتح مصر من الشرق فعسكر عند التل الكبير . وفكر عرابى فى ردم القناة ولكن دلسبس أوهمه أن الإنجليز لا يخرقون الاتفاقات الدولية وأنه سيكسب عطف الدول ومساعدتها .

١١ — أذاع الخديو قراراً بعصيان عرابى الذى كان يعمل للدفاع عن حقوق البلاد فأثر ذلك فيه وفى رجاله وأشاع بينهم سحابة من اليأس والتشاؤم.

١٢ — استيقظ عرابى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ فرأى الانجليز يطبقون عليه وخذله الضباط المصريون المنتسبون إلى الخديو وعملت الرشوة عملها .

١٣ — أنصار الخديو يرشدون الإنجليز إلى أقرب طريق للوصول إلى القاهرة.

١٤ — قتل من المصريين ٢٠٠٠ وأسر ٥٠٠.

١٥ — دخل الانجليز القاهرة واستولوا على القلعة وقبضوا على العرابيين وحكموا عليهم بالقتل ، واكتفى الخديو بنفيهم إلى جزيرة سيلان فى ٢٧ ديسمبر ١٨٨٢ .

١٦ — أصر الانجليز على البقاء لتوطيد مركز الخديوى ، ثم أذاعوا أنهم لا يستطيعون الخروج من مصر لأنهم يخافون من دخول قوات المهدى الثائرة فى السودان إلى مصر .

١٧ — قضى عرابى ١٩ عاما فى منفاه ثم أفرج عنه ١٩٠١ ، رحمه الله وجزاه أجر المجاهدين الأبرار ، فقد كان رجلا بدوياً متديناً تخرج فى الأزهر وكان ذا صبغة صوفية وله اطمئنان إلى الطرق الصوفية ، وكان من بين أسباب فشله بيع الضمائر بثمن بخس - وكشف الخطط لعسكر العدو من بعض جنوده وعدم اشتراك الشعب اشتراكاً فعلياً .

وبذلك وضعت انجلترا يدها على مصر وأصبح لها مستشارون فى كل الوزارات والمصالح لا يقضى أمر بدون رأيهم .

أما الحركة الوطنية المصرية التى بدأت منذ وطأت أقدام الإنجليز مصر وثورة سنة ١٩١٩ فسنفرد لها رسالة خاصة .

قضية جنوب وادى النيل

(مصر دان)

فتح السودان محمد على الكبير سنة ١٨٢٠ بحملة أعدها بعد فتح جزيرة العرب رغبة فى تأمين منابع النيل والعناية بروافده وخلق وطن كامل يبدأ من منبع النيل وينتهى بمصبه وقد وصل إبراهيم وإسماعيل إلى دنكا على مصب نهر سوباط . وأسس محمد على مدينة الخرطوم سنة ١٨٢٢ وجعل من البحر الأحمر بحيرة مصرية وبنى بالخرطوم دار الصناعة وأنشأ السفن النيلية الكبرى وأصبحت الخرطوم محطة لتجارة السودان وعين عليها الولاة . وسافر بنفسه إلى السودان سنة ١٨٣٨ ووصل إلى حدود الحبشة وألغى تجارة الرقيق وكانت هذه الحملات والاستكشافات المصرية التى وصل إليها مبعوثو محمد على إلى نهر سوباط درجة ٤½ شمالا أول معاول الكشف فى قارة أفريقيا أو القارة السوداء . ثم تقدمت فى جنوب وادى النيل ففتحت دارفور سنة ١٨٧٣ وتم الاستيلاء على أفريقيا الاستوائية ومنابع النيل - وحاول إسماعيل الوصول إلى ساحل المحيط الهندى لولا أن ردته انجلترا ثم ضم هرر وبربرة سنة ١٨٧٥ .

***

أرسلت مصر السير صمويل بيكر ١٨٦٤ على رأس حملة لإخضاع الأراضى الواقعة فى جنوب غندكرو فتمكن السير صمويل من تأسيس محطات حربية تجارية لمنع الرقيق . وامتد النفوذ المصرى إلى جنوبى غندكرو - ثم عين غردون سنة ١٨٧٤ حاكما على الأقاليم الاستوائية جنوب فاشودة فوصل إلى جنوبى خط الاستواء . ووصلت الجنود المصرية إلى أوغندة وزنجبارة . وكانت لاتزال انجلترا فى جنوب خط الاستواء واقفه بالمرصاد أمام تقدم الزحف المصرى وخاصة عندما أعدت العدة للزحف إلى ساحل المحيط الهندى . ثم فتحت مصر دارفور بقيادة الزبير باشا وأصبح السودان المصرى يمتد من خط عرض ٢٣ شمالا إلى درجة ٢ شمالى خط الاستواء جنوباً ويمتد غرباً إلى دارفور وشرقا

إلى هرر وسواحل البحر الأحمر ويشمل : خط الأستواء - بحر الغزال - النيل الأبيض - كردفان - دارفور - السودان الشرقى .

المهدى ١٨٨١

كان المهدى [١] داعية إسلامياً على نظام الطرق الصوفية ولذلك سمى أتباعه بالدراويش . وقد جمع إليه طائفة كبيرة من الأتباع الذين استمعو إليه وآمنوا بفكرته وقد اعتكف فى جزيرة أبا ثم استطار اسمه وكاتب العلماء والأعيان بل والملوك يدعوهم إلى الانضمام إليه وقد بدأ الصدام بينه وبين الحكومة فانتصر على قوى الحكومة فزاد ذلك من نفوذه ثم دعا إلى تحرير السودان من سلطان مصر وإقامة خلافة إسلامية على قواعد الشرع الصحيحة . وقد زحف بقواه التى هيأها بوضع خاص جديد هو العزوف عن المطامع والمغانم والشهوات والإيمان بأن هذه الحرب جهاد فى سبيل الله وفى سبيل نصرة العقيدة فاستجاب لهذه الدعوة جمع كثير من شباب أقطار الإسلام كلها كالهند وإيران والجزيرة العربية . وسقطت فى يده كردفان سنة ١٨٨٣ وتوالت انتصاراته . وأعدت الحكومة العدة لمقاومته بإرسال عبد القادر حلمى سنة ١٨٨٢ ولكن المهدى اكتسح دارفور وأباد القوى التى أرسلت بقيادة هكس باشا .

وحاصرت قوى مهدية أخرى كسلا وسواكن وطوكر فتم الاستيلاء عليها بقيادة أحد أتباعه (عثمان دقنه) وكان ذلك مزعجاً أيما إزعاج للحكومة المصرية والإنجليزية التى كانت مشغولة وقتئذ بثورة عرابى فانتهى ذلك بإخلاء السودان وتسريح الجيش المصرى خوفا من تهديد السودان لحدود مصر - وطبيعى أن هذه الفكرة من صنع الإنجليز الذين كانوا ينظرون إلى مابعد قمع ثورة المهديين من ضم السودان لهم باسم السودان المصرى الانجليزى .

وقد تمسك شريف باشا بالسودان سنة ١٨٨٤ فأجيب من الانجليز بأن

---

(١) مهما يحاول مؤرخو التاريخ القومى أن يقللوا من شأن المهدى ويتهموه بالغرض فاننا نعتقد أن حركته كانت استجابة لزحف الفكرة الاسلامية .

بنصائح بريطانيا لابد أن تنفذ وأن المسئولية على عاتق انجلترا . ومصر فى ذلك الوقت محتلة احتلالا فعليا فما عليها إلا أن تسلم .

وعين غرودن فى ٨ يناير سنة ١٨٨٤ لإخلاء السودان وسحب الحاميات القائمة فى الخرطوم وسنار ودنقله وغندكرو .

وسقطت بربر فى يد المهديين . وزحفت جحافل المهديين بالرغم من النجدة المرتقبة بعد حصارها وتهديد الجوع لساكنيها ثم قتل غردون وحملت رأسه إلى المهدى فغضب لذلك أشد الغضب إذ كان يرغب فى استبقاء غردون رهينة يخلص بها أحمد عرابى ، ومن ثم مزق السودان إذ أعطيت الحبشة إقليم بوغوس وهرر ، وضمت انجلترا بربره وأعطيت زيلع لتركيا ثم احتلها الانجليز سنة ١٨٨٤ وسمحت انجلترا لايطاليا باحتلال مصوع سنة ١٨٨٥ .

وكذلك ضاعت مديرية خط الاستواء إذ أخذت انجلترا (أوغنــــده) ، وأعطيت (لادو) للبلجيك ، ثم فكر الانجليز فى استعادة السودان بعد أن هدأت عاصفة المهديين ووفاة المهدى ١٤ يونية سنة ١٨٨٥ وعرف عن خليفته التعايشى ضعفه عن المقاومه ، فاقتحمت الجيوش المصرية فى سنة ١٨٨٥ السودان والتحمت مع الدراويش فانتصر الجيش المصرى فى عدة مواقع ثم سيرت حملة بقيادة كتشنر سنة ١٨٩٦ مكونة من الجيش المصرى وبعض الفرق الانجليزية فتم لهذه الحملة فتح السودان مرة أخرى ، ومدت السواعد المصرية خطوط السكة الحديد التى لاتزال تحمل الجنود والحكام الإنجليز الذين أصبح لهم السلطان الفعلى فى السودان والسيطرة العامة عليه . وانتهت المواقع بدخول الجيش الخرطوم فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨ بعد انقضاء ١٣ سنة على قتل غردون .

ومن هنا تعرف - أخى الكريم - أن قوات مصر وجيشها ورجالها الأبطال هم الذين فتحوا السودان ، وها أنت اليوم غريب عنه لاتدخله إلا بتصريح محدود بأيام . وإن كنا لانحب أن نذكر فيما بيننا وبين إخواننا السودانيين إلا أننا رضيعو نيل واحد ووطن واحد ودين واحد وشمس واحدة ، وأننا جميعا عرب لم تفصلنا الحدود ولن تفصلنا مهما حاول الاحتلال ومهما أراد

الاستعمار فنحن إخوة جنس ولغة ودين ونيل اجتمعنا على شواطئه واستقينا منه ، هم على منابعه ونحن على مصبه حراس أمناء شركاء .

أما الانجليز فقد بهرهم الظفر الذى قامت به القوى المصرية وحدها فنسبوه إلى أنفسهم وانتقمت انجلترا من المهدى فى قبره لأنه أراد لدينه عزة ولوادى النيل حرية ولأحكام الله إعلانا فسلطوا المدافع على قبره فدكوه ثم نبشوا قبره وقطعوا رأسه .

أتنتقمون من المهدى ميتاً ولو أطال الله عمره لملأ الشرق نوراً ولكن مهلا فإن للمهدى خلفاء ولدين الله أمناء وأنصاراً لاينقطع جهادهم ، إذا مات منهم سيد قام سيد .

دعوة المهدى سنة ١٨٨١ م — ١٢٩٨ ﻫ

أقام المهدى فى جزيرة أبا ومن حوله أنصاره والمؤمنون بدعوته . دعوة سمحة تستمد نورها من الرسالة المحمدية الغراء ، على أصدق سننها وأصفى طرائقها — والعالم الذى عمه الظلم والجهل والغفلة - وقتئذاك - فى أشد الحاجة إليها .

غفل المسلمون عن دينهم وقرآنهم وغلبهم الجهل . وملأ نفوسهم الذل للغاصب والدخيل والمستبد ، وطال هذا العهد وآن لهذا الحجاب أن ينقشع وآن للناس أن يؤوبوا إلى دين الله يتذاكرونه علما وينفذونه عملا ويقيمونه شريعة بعد أن دعا إلى ربه محمد أحمد المهدى وجمع من حوله الأعوان والكتائب واشتد ساعد الدعوة المهدية فجاب المهدى أقطار السودان يبث فيها طريقته ويلاقى أحبابه وتلاميذه ويستطلع أحوال البلاد .

* * *

كان زمام الحكم فى السودان بأيدى الأتراك ، وكان الأتراك فى تلك الأيام قد وصلوا إلى درجة من الضعف أنتجت أسباب التمرد والثورة فى الشمال والجنوب على السواء . فكان دعوة المهدى ترمى إلى غايتين : الإسلام والتمسك

بالدين والانضواء تحت لواء قيادة مخلصة يؤمن متبعها بصدق دعواها، والوطن والعمل على تحريره من سلطان المستبدين والظالمين ، وقد بدأت تخطو خطواتها الأولى فتزحف فى ركابها الفكرة الإسلامية مرة أخرى إلى الشرق لتحتل قواعدها الأولى .

* * *

عاب المؤرخون على المهدى ثورته ودعوته . هل كان من الخير أن يظل المهدى وأنصاره فى أتون الظلم والطغيان . هذا الظلم الذى عم كل شىء — نظام الحكم ونظام المجتمع وعم البيوت وشمل نظام القضاء والمعاملة بين الناس ؟ هل كان من الخير أن يذل المهدى وهو ابن الاسلام ورسوله يقول : (من أعطى الذلة عن نفسه طائعاً غير مكره فليس منا) فشت الرشوة وبهظت الضرائب واشتد التنكيل فى تحصيلها ومصر غافلة بأحداثها ، وفى مقدمتها ثورة عرابى، عما فى السودان من أحداث .

ونسى الدين فلا صلاح لهذا كله إلا أن يقوم داعية يدعو الناس إلى الإسلام وإلى كتاب الله ليدفع عن هذه الأمة ما أصابها وليحكم بين الناس بما أنزل الله .

كان أتباع المهدى دراويش وكان جماع دعوته طريقة صوفية . ولكن لب الدعوة كان قوياً . كله حيوية وقوة وإيمان صادق وفهم صحيح . وتضحية وفداء . وزهد وعزوف عن مغانم الدنيا ومطامعها وإيثار وأخاء - وكراهية للشهوات واللذاذات المتفشية .

وهنا قالها محمد احمد المهدى داوية صريحة (فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) كذلك شعر المهدى بعد أن تبين حال الناس فى جولاته إلى أقطار السودان شمالا وجنوباً وآمن بأنه مسئول ليرد هذا العدوان ويقضى على هذا الشر بما جمع الله حوله من القلوب المؤمنة بالله المعتنقة لقيادته التى رضيت بأن تكون جيش

الخلاص . لتحرير الوطن من الذل السياسى والذل الاجتماعى .

وفى غرة شعبان ١٢٩٨ - ٢٩ يونيو ١٨٨١ أعلن الرجل كفاحه بعد أن جمع إليه أتباعه من مشايخ الطرق والفقهاء ورؤساء العشائر والقبائل وأخبرهم أنه سيعمل معهم ليعيد الحكم بكتاب الله إلى الأرض ولينفذ شريعة الله فبايعه كل من حوله على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى الرضا بالله رباً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا وعلى الجهاد فى سبيل الله وكان السودان فى حالة النزع يتطلع إلى المنقذ الذى يحطم عنه قيود الظلم والاستبداد فانضم إليه الناس أفواجا .

ولما علمت الحكومة به حاولت رده وإخماد حركته ولكن الرجل وقف وقفة المؤمن الواثق بربه الثابت على عهده الموقن بقوة الله تظاهره وبإيمان جنوده من حوله . فما أن اصطدم بالحكومة فى أول مرة حتى هزم رجالها شر هزيمة وحطم قواهم وشتت شملهم . فأرهبهم هذا وفت فى عضدهم .

وهاجر المهدى إلى جبل ماسة وقد نظم صفوفه وكتائبه وقلد شئون القضاء لمن اختاره وقلد شئون الانابة لأصلح الناس لها ووكل إلى القضاة الحكم فى المسائل الشرعية والأهلية ووكل النواب بشئون الغنائم وبيت المال ونظم بيت المال تنظيما إسلامياً نسبياً ففرض الزكاة على النقود والماشية والعشور على الزرع والمحاصيل .

وفزعت الحكومة فى السودان إلى حكومة مصر فلم يجدها تغيير حاكم بحاكم لرد هذه القوة الفتية المؤمنة ودفع المهدى بالارصاد والعيون ينقلون إليه الأخبار من مصر ومن الجهات الرسمية فى السودان . وكان الجيش الذى أرسلته الحكومة المصرية بعض فلول جيش عرابى المحطم فلم تعمل شيئاً أمام هذا القوى المندفع إلى غايته .

لما ألقى زحف المهدى هدد الحكومة المصرية فأرسلت غردون لأن له بالسودان فهما وخبرة فما أن وصل السودان حتى أرسل رسولا خاصاً إلى المهدى ومعه بعض الهدايا وكتاب إلى السيد المهدى ذكر له فيه أن حكومة جلاله الملك قد عينته والياً عاماً على السودان واعترفت باستقلال البلاد

وفصلها عن مصر فصلا نهائيا كما اعترفت لعظمة السيد محمد احمد بالسيادة على السودان الغربى و تلقيبه بسلطان السودان الغربى و يأمل غردون مساعدته على إخماد نيران الثورة فى السودان الشرقى ووعد بفتح طريق سواكن أمام الحجاج وأكد أنه لايقصد من وراء كل ماذكره سوى حقن دماء المسلمين .

ولكن هذا لم يكن ليغرى المهدى أويغير من خطته لأن نفسه لم ترغب إلى سلطان فضلا عن أنه رجل غاية وقائد دعوة وله هدف لابد من الوصول إليه رغم أنف غردون وتنكر الرجل لوعود غردون لأنه كان يعرف أنها وعود كاذبة وحيل باطلة .

وليس هو بحاجة الى السيادة التى يعطيها إياه غردون فهو سيد السودان رغم أنفه وليس هو بالذى تخدعه عبارة فتح طريق سواكن لسفر الحجاج فما كان ذلك القول إلا خدعة تلبس ثوبا إسلاميا .

ولقد كان رده عليه رداً قوياً إذ أرسل إليه رجليين فدائيين من جيشه وأنصاره مستعدين لبيع أنفسهما لله تعالى ومعهما كتاب منه لايغمدان سيفهما حتى يدخلان عليه و يسلماه الكتاب . ولا يذوقان طعاماً ولا شراباً وينصحان له ويعظانه بالإقلاع عن خطته ويملآن آذانه وعيداً وقلبه رعباً وإذا قتلهما فهم ممن قضى نحبه من المؤمنين الذين صدقوا ماعاهدوا الله عليه وحسن أولئك رفيقاً . فلما وصلا إلى مدينة الخرطوم وقفاً على قصر الحاكم وسيفاهما مسلولان فلما اعترضهما الحرس امتنعا عن الدخول فأذن لهما غردون واستقبلهما واقفاً متقلداً سيفه ومسدسه فسلماه الكتاب ثم دعواه إلى الاسلام وكان كتاب المهدى دعوة إلى الإسلام وسخرية من تصريحه بالسلطنة على السودان الغربى بأنه لايريد ملكا ولاجاها وأخذ يؤيد كلامه بعبارات من الإنجيل وقال له فى كتابه أنه يحيي ما اندرس من الإسلام وبشره بقول الله تعالى لو أسلم (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم)

واستطرد إلى خير فتح طريق الحج فقال له (إنها خدعة منك وتظاهر

بحماية الاسلام مع أنك لاتؤمن بحرف منه وأنك لمن معشر عرفوا بعدائه وكراهيته)

وختم خطابه بالآية الكريمة معلقا على هديته إليه (أتمدوننى بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون)

فغضب غردون وجمع العلماء (علماء عهود الظلم والاستبداد الذين أيدوا نابليون فى مصر وأيدوا غردون فى السودان) وكانوا دائماً أنصار الغاصب المستعمر لقاء دريهمات ولقيمات وسلطان وجاه فى الدنيا ، ثم فى الآخرة تسعر بهم النار قبل الكفار والمشركين) فافتى العلماء ببطلان دعوة المهدى وحكموا بتكذيبه ورفعوا الفتوى إلى رسول المهدى . وحاول غردون بعد ذلك تنظيم خططه وتعزيز استحكاماته فى الخرطوم وحاول أن يغرى السودانيين ليكونوا معه فنادى لأول مرة (السودان للسودانيين) كلمة حق يراد بها باطل لأن الغاصبين له هم الانجليز وأخذيحاول إرضاء أهل السودان ليكونوامعه بتخفيف الضرائب وإذاعة النشرات عن قرب وصول الإمدادات والأطعمةوالملابس والجنود وأطلق سراح المسجونين ولكن المهدى كان فى ذاك الوقت هو سيد السودان الفعلى والمسيطر الأول والأكبر على أغلب نواحيه وكان يزحف متجها إلى الخرطوم .

وحاصر المهدى السودان فأن من الجوع وانقطاع المؤنة واستولى على أم درمان وقد اشتد الجوع على أهالى الخرطوم فأكلوا الجلود والصمغ . وغردون فيها شبه محاصر ، والامدادات لم تصل وهويستعجلها ويعد الشعب بها والباخرة بجوار قصره منتظرة وقت الفجاءة ليهرب بها .

وبات أنصار المهدى ليلتهم كشأنهم دائماً يكبرون ويتهجدون ويسبحون انتظاراً لانبثاق الفجر ليهاجموا الخرطوم) فلما وصلت الجنود إلى الخرطوم هاجمت ثلة منهم قصر غردون وحملوا رأسه إلى المهدى فوق رمح . وكان فتح المهدى للخرطوم قنبلة عنيفة انفجرت فى العالم الإسلامى كله بلغ دويها أقصى حدوده فهاجر على أثرها المسلمون من مصر والحجاز والهند

رالمغرب وأفغانستان إلى أم درمان ، وكان على السلطان عبد الحميد السادر فى غفلته فى يلدز أن يصدر منشوراً يقول فيه إن المهدى كاذب وقد نحا نحوه الأزهر . وتوالت الفتاوى من الجهات الرسمية التى لا تخضع إلا بالقوة تكذب هذا الرجل المجاهد الذى لايبغى بجهاده دنيا ولا مطمعاً شخصياً ، إنما يبغى وجه الله خالصا وتحرر الوطن كاملا وإقامة أحكام الله فى الأرض بعد أن طال بها التعطل ،

وما يضير الإسلام ، بل ما أسعد الإسلام ، أن تكون دعوة المهدى - دعوة للشرق المسلم كله وليس للسودان فحسب - أليست دعوة الحق ، أليست دعوة الجهاد ، أليست صدى الدعوة الأولى وعلى نسقها ومن معينها ترفع عن الناس غفلاتهم وجهالاتهم وماهم فيه من ظلم واستبداد بنقلهم من الذل إلى العزة ومن الجهالة إلى النور ونعيدهم إلى الكرامة الإنسانية والمجد الإسلامى ليقفوا فى فى وجه المعاصب وليعرفوا حقهم ويطلبوا من الله النصر والتأييد (لقد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه) .

كذلك آمن المهدى وصدق أتباعه ففتح الله له . وكذلك كان المهدى (يبغى فتح مصر وغزو الشام وإخضاع الحجاز والاستيلاء على تركيا) ليذيع دعوة الحق فى هذا الوطن الغافل ولو قدر له ذلك لما تمكن الغرب المتعصب الصليبى من أن يمزق الشرق الإسلامى بعد الحرب الكبرى الأولى تمزيقاً ويفعل به الأفاعيل .

كان المهدى يأمل هذا ولذلك غضب على رجاله عند ما قتلوا غردون فقد كان يريد أن يفتدى به عرابى وكان يأمل كثيراً من الخير فى اليقظة التى دبت فى مصر على أثر نشاط جمال الدين الأفغانى فى جولاته فى الشرق وعزائم تلاميذه محمد عبده والكواكبى أن تلتئم الحركة الإسلامية فى صورة موحدة ووجهة واحده فيقود وادى النيل - بعد تحريره - الشرق كله إلى الحرية وإلى الإسلام الصحيح وإلى إقامة أحكام الله كما أقامها المهدى فى السودان بعد أن وطد ملكه .

وكذلك وقف العرب للحركة الإسلامية الجديدة كما وقف من قبل للحركة

العربية التى أثارها محمد على وكما وقف لحركة الامبراطورية المصرية إلى منابع النيل التى أرادها إسماعيل وكما يقف دائماً أمام كل نشاط من شأنه أن يعيد للإسلام مجده ـ ذلك لأن أوربا تعرف مدى الخطورة على توسعها فى الشرق من نشاط الإسلام .

هذا الإسلام الذى أسس أمبراطورية شامخة البناء فى أقل من قرن . أى نعم فى ٨٠ عاما فقط كانت مملكة الإسلام تمتد من الهند شرقا إلى الشام شمالا إلى الاندلس غرباً إلى المحيط الهندى جنوباً . وهو ملك لم يستطعه نابليون من بعد ولا الاسكندر المقدونى من قبل . ولا أوتى أى قائد من قواد الغرب القدرة على أن يقيم مثل هذا الملك ، ذلك لأنه لم يقم بحد السيف ولا بالاستعمار الغاصب إنما قام على أساس عقيدة قوية ودين ناصع يشمل نظاما كاملا للمجتمع كله عدالة وإخاء ومساواة ، عدالة فى القضاء وإخاء بين الغنى والفقير ومساواة بين المسلم وغير المسلم من الناس ، إنما قام على أساس البرهان والمنطق والقاعدة والإقناع وقام على تنظيم الزكاة والمواريث وإقامة الحدود وعلى أساس الحب والرحمة والإخاء والكرامة والعزة والرجولة ولكل خلق من هذه الأخلاق وضع معروف .

مجتمع هذا شأنه تتعادل فيه القوى فلا يطغى الغنى على الفقير ـ ولا يظلم الكبير الصغير وتتناسق فيه الأوضاع الاقتصادية والمالية والمعيشية فيأكل الجميع دون أن يكون هناك جائع ويكتسى الجميع دون أن يكون هناك عريان يقف الكل فيه وقفة الرجولة والاستئساد أمام الغاصبين محافظة على الأوطان ودفاعاً عن الدين من شأنه أن يخيف الغرب الذى أقام حضارته الداعرة على رقة الدين وعلى جمود الآلة وعلى إقصاء الروحية عن المجتمع .

لذلك فالغرب يقف بالمرصاد أمام حركات الإسلام يحاول قمعها لأنها التيار الجارف أمام استعمارهم . فدعوة كدعوة المهدى تقوم فى سنة ١٢٠٢ هـ سنة ١٨٨٥ م فى وقت يستيقظ فيه الغرب لقتلهم الشرق . وفى وقت عرف فيه الغرب من هم المسلمون الأول الذين يعيش أحفادهم فى الشرق الآن . وفى وقت تسلم فيه الروح دولة قوية كتركيا ، والغرب مترقب متربص يقسم تركتها ،

وفى وقت يذكر فيه الغرب ضربات الإسلام القوية المدمرة فى نهر اللوار وفى قلب فينا .

كل هذا يدعو الغرب وفى مقدمته إنجلترا أن تحارب المهدى لأنه الداعية الأول الذى جاء ليقول إنه إنما يريد إقامة أحكام القرآن فى الأرض ولا يبغى من وراء ذلك سلطاناً ولا ملكا عضوداً - ولا بد للإنجليز أن تنزعج حين تعلم أن المهدى وراءه عرابى المنفى ومحمد عبده محرر العروة الوثقى وكل مسلم يعرف حق الإسلام عليه .

ولا بد للغرب أن ينزعج حين يعلم بأولئك (المجانين) المهاجرين من بلادهم فى أقصى الشرق إلى السودان لينضووا تحت هذا اللواء المظفر ولكن مهلا : فكل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون .

* * *

وبعد أن تمكن المهدى من فرض سلطانه العسكرى على السودان بدأ يفرض سلطان الإسلام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والقضائى ، فهذا هو الهدف الأسمى والغاية الكبرى ، أن تملأ الدنيا عدلا بعد أن ملأت جوراً ، ومن يعيد لها العدالة إلا تشريع الإسلام .

فتح المهدى باب الاجتهاد ، وعاد بالناس إلى تعاليم الإسلام فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين ، وأراد للناس الدين ميسراً سهــلا ، خالياً من الأوهام والخرافات ، فأبطل المذاهب الأربعة ، واستخرج مذهباً اجتهادياً وحد فيه بين المذاهب ، وسوى ما بينها من خلاف ، وقطع يد السارق ، وجلد على المعصية ، وشرب الخمر ، وجدد فى المعاملات ، وسوى فى معاملات الرجل والمرأة فى الزواج والطلاق ، وأبطل الألقاب والرتب ، وأمر بلباس واحد . ومنع النساء من التزين بحلى الذهب والفضة والتبرج ، وحد من خالفت ، وأمر بحلق شعر الرأس ، وحرم الاحتفالات التى تدعو إلى الترف ، وجعل مهر البكر ١٠ ريالات وثوبين ، ومهر الثيب ٥ ريالات وثوبين ، وعاقب من خالف ذلك ، فسهل الزواج ، وأزال بذلك البغاء ، وأبطل الغناء والرقص ، ونقر الدفوف ، وجلد من خالف ذلك ، ومنع البكاء والنواح على الميت ،

وعاقب المنجمين وكتاب التمائم ، وحرم شرب الدخان ، والتبغ ، والحشيش ، والخمر ؛ وجلد فى ذلك ، وجلد لفحش القول . وقسم الغنائم ، وجمع الزكوات ، وجاهد فى سبيـل الله فسوى بينـه وبين المجاهدين الأول ، فهنيئاً له وهنيئاً لمن اتبعه .

وهكذا كانت القوة التى تخلق الأمم ، وتقيم الشريعة ، وتنفذ أحكام الله ، وتنشىء المجتمع الكامل ، وإن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن .

* * *

نريد بهذا أن نذكر المسلمين ، وأن نسجل زحفـاً إسلامياً قوياً فى سبيل تحقيق غايته ، وفى سبيل الوصول إلى قواعده . وإن كان هذا الزحف لم يطاول الزمن فليس هذا ذنب المهدى . وإنما هو ذنب المسلمين الذين أهملوا حماية هذا الأساس ، وهدموه لأنهم لم يؤيدوه ، بل عارضوه ونقضوه واتهموا صاحبه بالكذب والخديعة ؛ فاستطاع الغرب المستعمر المتحفز إلى تحطيم قواعد البناء الجديد فى الإسلام أن ينتصر حيث ينهزم الدين ؛ ولكن إلى حين ، فسوف تقوم فى الشرق الإسلامى دولة تحكم بالقرآن ، وإن طال مطال الغرب والزمان .

السودان الحديث

تبلغ مساحة السودان مليون ميل مربع تمتد إلى الجنوب حتى هضبة البحيرات حيث منابع النيل الإستوائية وشرقاً إلى هضبة الحبشة بجبالها وقممها وحيث منابع النيل الصيفية ويمتد ساحل السودان ٤٠٠ ميل على البحر الأحمر وعليه تقع بورسودان وسواكن. وتقع الغابات الاستوائية فى أقصى الجنوب ومنطقة الحشائش حيث تحيا الحيوانات المفترسة، وحاصلات هذا الاقليم من الفيل وريش النعام وجلود النمور والماشية.

وتمتاز المنطقة الوسطى بالزراعة. وبها سد مكوار القائم على النيل الأزرق يروى أرض الجزيرة، وخزان جبل الأولياء على مجرى النيل الأبيض ومحاصيل هذا الاقليم السمسم والفول وأهم مناطق الزراعة بالسودان الجزيرة ثم كسلا وطوكر، ويسكن الزنوج فى الجنوب والعرب فى الشمال وتعيش القبائل الشرقية على الرعى، ودياناتها وثنية، وهى (الدنكا - النوير - الشلوك) ويدعى بعض المغرضين أن عرب السودان مهاجرون من بلاد المغرب وهذا رأى باطل لأن عرب السودان وعرب مصر من أصل واحد.

* * *

منابع النيل يجب أن تكون بأيدى الوطن الذى يقوم هذا النيل على حياته وعلى موارد رزقه، ولما كانت مصر هبة النيل فقد تعلقت به مظاهر الزراعة وعوامل إنباتها فوجب أن يكون وحدة كاملة من منبعه إلى مصبه.

والعوامل الطبيعية التى توجدها الأنهار تثبت أن الشعوب التى تعيش على جوانب النهر من نوع واحد وجنس واحد. والوحدة قائمة فعلا فى الاجتماع واللغه والدين والجغرافيا بيننا وبين إخواننا سكان جنوب الوادى.

ولا بد حتما أن تكون منابع النيل بأيدى هؤلاء الذين يقوم النيل على تنظيم حياتهم لا بأيدى الغاصبين. ولا بد من تأمين الطريق إلى منابع النيل تأميناً

كاملا حتى نشعر أننا نعيش فى هذا الوادى حياة ثابتة غير مهددة بما يحول دون وصول هذا الماء إلينا أو يهددنا بقطعه .

أما التفرقة بين المصرى والسودانى أو محاولة التفرقة بين جنوب السودان وشماله ، فهذه ألاعيب السياسة الاستعمارية التى تعمل على التفرقة والتمزيق دائماً ولكنها لن تفرق الجسد الواحد ولن تمزق التجانس الشامل فالوحدة قائمة رغم كل محاولة .

نستقى من هذا الدين المتين ومن هذه اللغة الخالدة ولن تحول أبداً أى يد بين شطرى الوادى ، والود متصل والعاطفة قائمة ، ومصير السودان متصل بمصير مصر . ومصر باعتبارها العامل الأول للمطالبة بإعادة شطر وادى النيل إليه وضم مصب النيل إلى منبعه مسئولة عن وقوفها موقف الضعف والهوان فى المفاوضات السابقة بشأن السودان وقبولها اتفاقية ١٨٨٩ ومعاهدة ١٩٣٦ .

* * *

معاهدة السودان (يناير سنة ١٨٩٩) :

أرغمت مصر فى ظروف عصيبة على توقيع هذه المعاهدة ولا تزال إلى الآن مرفوضة لأنها فرضت فرضاً فى حالة إكراه ، ذلك لأنها قسمت أرض النيل قسمين قسم تحكمه إنجلترا مباشرة وقسم تحكمه مع مصر ومن شروط هذه المعاهدة تعيين حاكم حربى بموافقة مصر ، وبها أصبح لمصر شبه حق فى حكم السودان بالرغم من أنها الفاتحة الفعلية له أولا وثانيا ، ومنذ سنة ١٩٢٤ وحادث مقتل السردار انفردت انجلترا بحكم السودان دون المصريين وسحبت الجيوش والموظفين المصريين منه ، وبقى حكم مصر للسودان اسما ورسما لاصحة له فى الواقع ، ولقد كانت مصر إلى عهد قريب تسدد عجز ميزانيته ،

* * *

ولما أطلقت يد الانجليز فى السودان قسموه قسمين قسم شمالى وقسم جنوبى ثم حرموا على أهل السودان الشمالى السفر إلى الجنوب إلا بجواز أو تصريح وساقوا إليه بعثات هائلة من المبشرين يفتنون المسلمين عن دينهم وينصرون

الوثنيين وحرموا على المسلم الصلاة أمام الوثنيين حتى لا يغريهم الإسلام وقد قام الجيل الجديد من أبناء المسلمين فى ظل المسيحية وبلغ أعضاء جمعيات التبشير فى السودان إلى زمن قريب ٣٨٠ مبشرا تمتد أعمالهم إلى نيجيريا وجنوب السودان والحبشة، وقد أنشأت هذه الجمعية فى السنة الماضية عدة كنائس فى كل نواحى السودان وقبائل الجنوب من العرب والزنوج وأغلبها على الفطرة ويعرفون بضعة كلمات عربية ولا يعرفون كثيراً ولا قليلا فى السياسة. وتشرف الجمعيات التبشيرية على إنشاء المستشفيات والكنائس (وحكومة (١) السودان تعتبر هذه المناطق مغلقة وتحرم على أهل الشمال زيارتها إلا بترخيص رغبة فى أن تبقى هذه الجماعات البدائية لا تعرف لغة ولا دينا وليس لها رأى فى سياسة ولا تفكير فى حرية. ولو ترك لأهل الجنوب والشمال الحرية لزاوجو وتناسلوا وألف بعضهم بعضا واندمجوا، وأصبح السودان كله وحدة واحدة).

(أظهر أحزاب السودان حزب الأشقاء وحزب الأمة. وحزب الأشقاء مؤيد من جميع الطبقات فى السودان وكبار رجال الطرق الدينية ومسيطر على الشعور الوطنى تماماً. لأنه يمثل رأى السودانيين وهو الذى قرر قيام حكومة سودانية ديمقراطية فى اتحاد مع مصر تحت التاج المصرى. أما الحزب الآخر فهو حزب مغرض يقول كما قال غردون منذ خمسين سنة (السودان للسودانيين) وإنا والسودان متفقون على الوجهة وهتافنا (اخرجوا من وادى النيل ثم نسوى مشاكلنا فيما بيننا)

والمصريون والسودانيون هم فى الحق أحرياء أن يسووا أمورهم فيما بينهم كما يسوى الأهل شئون دارهم فلا ضير أن يحكم أحدهما الآخر ولكن الكارثة أن تحكمهما انجلترا، وحزب الأشقاء يقول دائماً: إن مبدأه الاندماج مع مصر وليس معنى هذا الاندماج زوال كيان السودان وخلع الجنسية المصرية عليه وبيع (أنفسنا لمصر) إنما المبدأ هو وحدة وادى النيل بانصهار مصر والسودان

---

(١) جريدة الأهرام.

فى الدولة الجديدة التى ستسمى دولة وادى النيل . وتتكون الشخصية الجديدة مشتقة من هذه الدولية التى ليست مصرية بحتة ولا سودانية بحتة كما أنه سيكون للدولة برلمان واحد ينتخب أعضاؤه وفقاً للتقسيم الإدارى للدوائر .

* * *

أما الفتنة الانجليزية الجديدة فى السودان التى يسمونها استشارة السودانيين فى مصير بلادهم فهى من الأمور التى لا يمكن أن تتم على وجه شريف أو أنه من المتعذر إجراء استفتاء عام فى جميع مناطق السودان ، لأن هناك مناطق لا تعرف اللغة العربية ولا تعرف أى لغة - ومن المغالطات الكبرى أن يلجأ فى الاستفتاء إلى الهيئات التى لها صفة تمثيلية مثل المجلس الاستشارى ومجالس المديريات والغرف التجارية فإنها إنما تمثل صنائع الاستعمار ممن أعدتهم انجلترا منذ زمن طويل لهذه المهمة فهؤلاء لا يمثل رأيهم حقيقة الشعور السودانى ، إنما أصلح الناس لهذا هو مؤتمر الخريجين لأنه يمثل الطبقة المثقفة فى السودان التى عليها يعتمد فى حرية الرأى ، وفى القدرة على الفهم والتقدير الصحيح للأمور فإذا ادعى الاستعمار أن مؤتمر الخريجين لا يمثل السودان كله فإنما يقال ذلك لأن فى قلب هذا الحزب العدة المفكرة للوقوف أمام الاستعمار بقلب ثابت وإيمان صادق .

وقد اتفقت الأحزاب السودانية أخيراً على المطالبة مع مصر بالجلاء عن وادى النيل بشطريه وكتبوا بذلك وثيقة مهروها بالدماء بدل المداد - على أن نتفق معاً بعد ذلك على نوع الصلة التى تقوم بين الشمال والجنوب ، والأمل معقود على أن هذه الصلة ستجعل للسودان ما لمصر من الحقوق الدستورية ، فتجرى الانتخابات فى مصر والسودان ويكون من السودانيين نواب وشيوخ فى البرلمان بنسبة عددهم ويكون منهم وزراء ورؤساء حكومات ولا مانع من أن يستبدل اسم المملكة المصرية بمملكة وادى النيل وتكون الوظائف الإدارية الكبرى والصغرى للسودانيين على اعتبار أنهم أعرف بشئون البلاد .

تاريخ الفكرة الإسلامية ـ ماضيها وحاضرها

- الكتاب الأول : قضايا الأقطار الإسلامية ـ أول
- الكتاب الثانى : قضايا الأقطار الإسلامية ـ ثانى

ويشمل قضايا أفريقيا الشمالية وسوريا وفلسطين والباكستان

أخى الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛

قدمنا إليك اليوم جزءاً من الحديث عن الفكرة الإسلامية الزاحفة إلى المجد ، وسنقدم لك فى القريب جزءاً آخر .

وسترى أننا نبسط لك أهداف القضية الإسلامية ، والدعوة القرآنية ، فى وضوح . ولذلك فنحن باسم الفكرة ، ورغبة فى إذاعتها ، ندعوك أن تعلن ذلك لإخوانك . هذا ، ونأمل أن يصلنا منكم اشتراكات عن الرسالة المقبلة ، حتى يمكن أن تصل إليكم فى حالة ظهورها ، خالصة أجرة البريد .

ويمكننا قبول اشتراكات عن ١٠ رسائل متوالية ، تظهر تباعاً أول كل شهر . وكذلك لامانع من إرسال ١٠٠ نسخة لمن يرغب من العدد المقبل مقابل ٥٠ مليما لكل نسخة .

ونسأل الله أن يوفقنا إلى السير بهـذا المشروع إلى نهايته ، حتى يحل فى سوق الكتب لون جديد من الفكر الرفيع ، والتاريخ الإسلامى على وجهه الصحيح ، بعيداً عن التحريف والغرض ، مجرداً من كل غاية ، إلا العمل الخالص للحق وحده ، وستظهر رسائل الفكرة الاسلامية فى ٢٠ رسالة إن شاء الله ؛ والله أكبر ولله الحمد ؟

أنور الجندى البنا

شركة الاخوان المسلمين للصحافة والطباعة والنشر

العنوان : ١٣ شارع أحمد بك عمر ــ الحلمية الجديدة ــ القاهرة




AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الاميركية في بيروت